خالد الخميسى

تاكسى

حواديت المشاوير



دار الشروق

كلام له علاقة بالكتاب

نزلت السيدة العذراء، حاملةً يسُوع بين ذراعيها، إلى الأرض لزيارة دير. وقف الرهبان، شديدى الفخر، صفا لتكريمها. ألقى أحدهم قصائد، أخرج لها آخر كتابا مقدّسا مزخرفا، وعدَّدَ آخر أمامها أسماء القديسين.

فى آخر الصف وقف راهب متواضع لم تتح له فرصة الدراسة مع حكماء زمانه، كان أبواه من البسطاء العاملين فى السيرك. عندما وصل دوره أراد الآخرون إنهاء مظاهر التكريم خوفا من الإساءة إلى صورة الدير، لكنه أراد هو أيضا إظهار حبه للعذراء، فأخرج من جيبه، محرجا، وشاعرا بنظرة إخوته المستهجنة، بضعَ برتقالات وأخذ يرمى بها فى الجو ويلتقطها مثلما علمه أبَواه.

عندها فقط ضحك يسوع، وصفق بيديه فرحا، مدت العذراء يَديها إلى ذلك الراهب وعهدت إليه بطفلها لبعض الوقت.

باولو كويلهو

من كتاب «مكتوب»

كلام لابد منه

منذ سنوات طويلة وأنا زبون (سُقع) لسيارات التاكسى، درت معها فى شوارع وأزقة القاهرة، بحيث أصبحت أعرف حواريها ومطباتها أكثر من أى سائق. (بعض الغرور لا يفسد للود قضية).

وأنا من هواة الحديث إلى سائقى التاكسى فهم بحق أحد ترمومترات الشارع المصرى (الصايع)، يضم هذا الكتاب بين دفتيه بعض القصص التى عشتها وبعض الحكايات التى جرت مع سائقين من إبريل ٢٠٠٥ إلى مارس ٢٠٠٦.

أقول إن الكتاب يضم بعض القصص وليس كلها، والسّبب أن أصدقاء من المحامين قالوا لى إن نشرها كفيل بزجى فى السجن بتهمة القذف والسب، وإن تسجيل أسماء بعينها فى نكت أو قصص محددة تملأ الأسماع والأبصار فى الشارع المصرى أمر خطير.. خطير يا ولدى. وهو أمر أحزننى لأن القصص الشعبية والنكت المصرية سوف تضيع دون تسجيل.

حاولت أن أنقل هذه القصص كما هى بلغة الشارع، وهى لغة

خاصة وفجة وحية وصادقة تختلف تماما عن لغة الصالونات والندوات التى اعتدنا عليها .

ودورى هنا ليس بالتأكيد مراجعة دقة ما قمت بتسجيله وكتابته من معلومات ، فالمهم هنا هو ما يقوله فرد فى المجتمع فى لحظة تاريخية بعينها حول موضوع محدد ، فالسوسيولوجى يفوق المعرفى فى مرتبة أولويات هذا الكتاب .

وسائقو التاكسى ينتمون فى معظمهم لشريحة اجتماعية مطحونة اقتصاديا . يعملون فى مهنة مرهقة جدا بدنيًا ، فوضع الجلوس الدائم فى سيارات متهالكة يدمر أعمدتهم الفقرية ، وحالة الصراخ الدائم الموجودة فى شوارع القاهرة تدمر أجهزتهم العصبية ، وحالة الزحام المستمرة تنهكهم نفسيا ، والجرى وراء الرزق - بالمعنى الحرفى للجرى - يشد ضفائر الكهرباء فى أجسادهم للمنتهى ، يضاف إلى كل ذلك حالة الشد والجذب الدائمة بينهم وبين الزبائن لعدم وجود أى معايير للحساب ، وبينهم وبين الشرطة التى تمارس ضدهم فى العموم ما يجعل المغفور له «الماركيز دو ساد»[1] يرتاح فى تربته .

أضف إلى ذلك أن مردود التاكسى لو تم حسابه بشكل علمى ، أى واضعين فى الاعتبار كافة العناصر من إهلاك للسيارة وأجرة

---

(١) الماركيز دوساد : ١٧٤٠ - ١٨١٤ ، كاتب فرنسى ، تناول فى كتاباته موضوع السعادة الحسية وارتباطها بالتعذيب الجسدى ، وقد اشتقت كلمة السادية من اسمه .

السائق والضرائب وقيمة التجديد والمخالفات . . إلخ سنجد أنه مشروع خاسر مائة بالمائة . وأصحابه يتصورون أن التاكسى يربح لأنهم لا يضعون فى الحسبان العديد من المصروفات غير المنظورة ، ونتيجة لذلك فحالة سيارات التاكسى متهالكة وبائسة وقذرة ، وسائقوها يعملون عليها كالرقيق .

وقد أدى عدد من القرارات إلى زيادة الإقبال على مشروع التاكسى بشكل غير مسبوق . حتى وصل عدد سيارات الأجرة فى القاهرة الكبرى إلى ثمانين ألفا ، وأهم هذه القرارات ، القرار الذى تم اتخاذه فى النصف الثانى من التسعينيات بالسماح لأى سيارة قديمة بأن تتحول إلى تاكسى . والقرار الثانى بدخول البنوك فى تمويل السيارات ومن ضمنها سيارات الأجرة . وهكذا انضم عدد كبير من العاطلين إلى طائفة سائقى التاكسى ، ودخلوا فى دورة عذاب حقيقية لسداد الأقساط البنكية . وتحول جهد أولئك المعذبين إلى مزيد من الأرباح للبنوك ولشركات السيارات ومستوردى قطع الغيار .

وفى المحصلة العامة ستجد الآن سائقى تاكسى من كل التخصصات ومن كافة الشرائح العلمية ، بدءاً من الأمى إلى الحاصل على الماجستير لأنى لم أقابل حتى الآن سائقى تاكسى حاصلين على (الدكتوراه) .

ولدى أولئك السائقين خبرات واسعة بالمجتمع ، حيث إنهم يعيشون عمليا فى الشارع ، ويلتقون بمزيج هائل من البشر بشكل

يومى، وتتجمع لديهم من خلال الحوارات التى يقيمونها وجهات نظر معبرة جداً عن شريحة (الغلابة) فى المجتمع المصرى.

والحق يقال.. فإننى كثيراً ما أرى فى التحليل السياسى لبعض السائقين عمقًا أكثر مما أجده لدى العديد من محللين سياسيين يملئون الدنيا صخبًا. فحضارة هذا الشعب تتجلى فى بسطائه. فهذا الشعب المصرى العظيم الرائع مُعلم بحق لكل من يريد أن يتعلم.

خالد الخميسى

٢١ مارس ٢٠٠٦

(١)

يا إلهى!.. كم عمر هذا السائق؟ وكم عمر هذه السيارة؟ لم أصدق عينى عندما جلست بجانبه.. فإن عدد الكرمشات فى وجهه بعدد نجوم السماء. تضغط كل كرمشة على الأخرى بـ (حنيّة)، وتصنع وجها مصريا نحته «مختار»[١]. أما يداه اللتان تضغطان على المقود فإنهما تتمددان وتنكمشان عبر شرايينها البارزة وكأن شرايين النيل تغذى الأرض اليابسة، مع رعشة خفيفة لا تحرك المقود يمينا أو يسارا، فالسيارة تسير ثابتة إلى الأمام، وتصدر من عينيه المغطتين بجفنين عملاقين حالة سلام داخلى تبعث فىّ وفى الدنيا الطمأنينة.

شعرت ـ بمجرد الجلوس إلى جانبه بفعل مجال مغناطيسى يصدره ـ أن الحياة بخير. وتذكرت لسبب مجهول شاعرى البلجيكى المفضل «جاك بريل»[٢]، وكم كان مخطئا عندما كتب قصيدة شهيرة وغناها تقول: «ما أحلى الموت مقارنة بالشيخوخة،

(١) محمود مختار: ١٠ مايو ١٨٩١ - ٢٧ مارس ١٩٣٤، مثّال مصرى.
(٢) جاك بريل: ٨ إبريل ١٩٢٩ - ٩ أكتوبر ١٩٧٨ شاعر ومطرب بلجيكى.

وأن الموت بأية طريقة أفضل بكثير من الكبر» . لو جلس بريل بجانب هذا الرجل كما أفعل الآن لمسح قصيدته بـ (أستيكة) .

أنا : حضرتك أكيد بتسوق من فترة طويلة .

السائق : أنا باسوق تاكسى من سنة ٤٨ .

لم أتصور أنه يمارس مهنة قيادة سيارات الأجرة منذ قرابة ستين عاما . . لم أجرؤ على سؤاله عن سنه، ولكنى وجدت نفسى أسأله عن النتيجة .

أنا : وإيه يا ترى خلاصة خبرتك اللى ممكن تقولها لواحد زيى، علشان أتعلم منها .

السائق : نملة سوداء على صخرة سوداء فى ليلة حالكة الظلمة يرزقها الله .

أنا : قصدك إيه؟

السائق : أحكيلك حكاية حصلت لى الشهر ده علشان تفهم قصدى .

أنا : أرجوك

السائق : عييت لمدة ١٠ أيام عيًا شديد، ماكنتش قادر أتحرك من السرير، وأنا طبعا على باب الله يعنى اليوم بيومه معايا . . بعد أسبوع ماكنش فيه فى البيت ولا مليم . . أنا عارف و مراتى مخبيّة علىّ . . أقول لها حنعمل إيه يا ستى؟ . . تقوللى الخير كتير يا أبو حسين وهى عمّالة تشحت أكل من كل الجيران . . وأنا

طبعا ولادى اللى فيهم مكفّيهم، اللى جوزْ نص عياله ومش عارف يجوزّ النص التانى . . واللى عنده حفيد عيّان بيجرى بيه فى المستشفيات . . القصد ما ينفعش نطلب منهم حاجة . . ده الواجب إن أنا اللى أساعدهم . . بعد عشرة أيام قلت للحاجة لازم أنزل الشّغل . . حلفت علىّ وقعدت تصرخ وتقول إنى لو نزلت ح أموت منها . . وبصراحة أنا ماكنتش قادر أنزل . . بس قلت لازم، كدبت عليها كدبة بيضة وقلت لها ح أقعد فى القهوة ساعة . . أغيّر هوا علشان حاتخنق . . ونزلت دورت العربية وقلت يا ربنا يا رزاق . . فضلت ماشى لغاية ما وصلت عند جنينة الأورمان ولقيت لك عربية بيجو ٥٠٤ عطلانة والسواق بتاعها بيشاور لىّ . . وقفت . . قرّب منّى وقال لى معايا واحد عربى طالع المطار تاخده علشان عربيتى عطلت؟ واخد بالك هنا من حكمة ربنا؟ معاه عربية ٥٠٤ حالتها بريمو، وعطلت!! . . قلت له أوصّله .

ركب معايا الزبون . . طلع من عُمان، من عند السلطان قابوس[1] سألنى تاخد كام قلت له اللى تجيبه . . أكد علىّ . . اللى حادفعه حاتاخده . . قلت له ماشى .

وأنا فى الطريق عرفت إنه رايح قرية البضائع علشان عنده حاجة حيخلصها . . فعرّفته إن حفيدى بيشتغل هناك وإنه ممكن يساعده فى تخليصها من الجمرك . . قال لى ماشى . . وبالفعل

(١) السلطان قابوس بن سعيد: ١٨ نوفمبر ١٩٤٠، سلطان سلطنة عمان.

رحت ولقيت حفيدى هناك وفى ورديته . . خد بالك هنا إن أنا طبعا كان ممكن ما ألاقيهوش . . خلصنا الحاجات اللى عاوز يخلصها ورجعته الدقى .

سألنى تانى حتاخد كام يا حاج؟

قلت إحنا اتفقنا، اللى تجيبه، فراح مدّينى خمسين جنيه خدّتهم وشكرته ودوّرت العربية . . سألنى راضى، ردّيت وقلت له راضى .

قال لى بُص يا حاج . . الجمرك كان المفروض يبقى بـ ١٤٠٠ جنيه دفعت أنا ٦٠٠ جنيه . يعنى الفرق ٨٠٠ جنيه دول طالعين من ذمتى، يعنى حلالك و ٢٠٠ جنيه أجرة التاكسى . . آدى ألف جنيه والخمسين اللى معاك هدية منّى!

شفت يا أستاذ . . يعنى مشوار واحد جاب لى ألف جنيه، ممكن أشتغل شهر وماجيبهومش . . شوف ربنا نزلنى من بيتى وعطّل العربية الـ ٥٠٤ وأوجد لىّ كل المسببات علشان يرزقنى الرزق ده . . أصل الرزق ده مش بتاعك والفلوس دى مش بتاعتك، كله بتاع ربّنا . . دى الحاجة الوحيدة اللى اتعلمتها فى حياتى .

نزلت من التاكسى آسفا فقد كُنت أتمنى لو جلست معه ساعات وساعات أخرى، ولكن للأسف كان لدىّ أنا أيضا موعد فى سلسلة الجرى المستمر وراء الرزق .

* * *

(٢)

ركبت مع سائق تاكسى من شارع جامعة الدول العربية أمام سور نادى الزمالك، وكان وجهه فى حالة احتقان وكأنه على وشك الانفجار . . شعُرت حقيقة وكأن شرايينه يسكنها حنش يتمدد ويتقلص من فرط الغضب، أو أنه سيصاب بجلطة دماغية فورا . .

أنا : ولا يهمك كله بيعدى .

السائق : أفندم . . فيه حاجة يا أستاذ؟

أنا : شكلك بيقول إنك متضايق، قلت أقولك ولا يهمك .

السائق : أنا مش متضايق . . أنا ح أموت .

أنا : فيه إيه بس . . مفيش حاجة فى الدنيا تستاهل .

السائق : لا فيه، طالع ميتين أمى علشان أأكل العيال ييجى واحد ابن قحبة ياخدهم منى . . وتقوللى يستاهل وما يستاهلش . . آه يستاهل ما أنا طافح الكوتة مش زى سعادتك على قلبك مراوح .

أنا : إيه يا عم ده؟ إنت حتطلع زعلك علىَّ . . إيه بس اللى حصل؟

السائق: ركب معايا واحد من مدينة نصر وقاللى المهندسين، قلت له اتفضل . . السكة زحمة والكوبرى كان واقف خالص . . قلت مش حيقدَّر، لكن مش مشكلة أنا اللى ما اتفقتش معاه . . جينا نزلنا كورنيش العجوزة، قاللى ادخل على ميدان سفنكس دخلت، قاللى لف من أول لفة واركن هنا بعد عمر أفندى . . علشان حنعمل كمين هنا.

كمين!! قلت فى نفسى يا نهار أسود . . المهم طلع أمين شرطة لابس مدنى . . طبعا مش حيدفع حاجة، وقفت أنا من هنا لقيته بيقول لى رخصك يا بن الكلب . . قلت له: ليه بس يا باشا؟ أنا ماعملتش حاجة، قال لى: رخصك . . طلّعت خمسة جنيه . . قال لى ماينفعوش، طلّعت عشرة جنيه، قال ماينفعوش، المهم خد عشرين جنيه . . ونزل ابن القحبة . . والله ولا لك علىَّ حلفان، دول كل اللى كنت اشتغلت بيهم النهاردة بعد ما حطّيت البنزين . . أنا كان هاين علىَّ أطبق فى زمارة رقبته، لكن فكَّرت فى عيالى وفى الولية مراتى.

بس أنا حمار عشان أنا دلوقتى ح أموت من الغل . . كنت قتلته وآهى موتة بموتة . .

أنا : هى البلطجة كدة عينى عينك.

السائق: البلطجة على ودنه . . مفيش واحد فى ولاد القحبة دول إلا مرتشى وحرامى (نصحنى البعض أن أكتب «معظمهم مرتشين»، وليس ما قاله السائق «كلهم مرتشين»، لكنى لم آخذ بالنصيحة لأن حالته لم تكن تسمح على الإطلاق بالتعقل وعدم استخدام صيغة المبالغة)، الله يخرب بيت أبوهم زى ما بيخربوا بيتنا يوماتى.

* * *

من أهم الموضوعات المحببة لدى سائقى التاكسى فى القاهرة شتم وزارة الداخلية، واحترامها وتبجيلها وتوقيرها فى نفس الوقت، فهما ـ السائقون وإدارة المرور فى الداخلية ـ الموجودان دائما فى الشارع . . والقصص فى هذا المجال كثيرة ولكن تلك القصة صفعتنى على وجهى بعنف.

وقد سمعت كثيرا أدعية على رجال البوليس فى قاهرتى الساحرة، ولكننى لم أكن أبدا متعاطفًا بقدر تعاطفى مع هذا المسكين ضحية هذا الأمين.

«أمين الشرطة» الذى كان حلما جميلا فى أوائل السبعينيات . . أمينا على الشوارع فى بدلته الجميلة، يسير بها متأنقا، ويا أرض انهدى ما عليكى قدّى، ومَن منّا لا يتذكر

كلمات صلاح جاهين[1] فى فيلم «خللى بالك من زوزو»[2] وهو يقارن أمين الشرطة «اسم الله» بالدبلوماسى.

كيف تحول هذا الحلم إلى كابوس على قلب الشارع المصرى خلال الثلاثين عاما الأخيرة؟

* * *

(١) صلاح جاهين: ٢٥ ديسمبر ١٩٣٠ - ٢١ إبريل ١٩٨٦، شاعر ورسام مصرى.

(٢) خللى بالك من زوزو: فيلم مصرى من إخراج حسن الإمام، ومن إنتاج ١٩٧٢.

(٢)

من ضمن النتائج الاجتماعية المباشرة لحركة «كفاية»[1] على الشارع المصرى، أنها رفعت البنديرة فى أيام المظاهرات.

بالطبع أقصد بكلمة البنديرة الأجرة، فالبنديرة موجودة كأداة تجميلية فقط تُزين السيارة وتمزق بنطلونات الزبائن الذين يجلسون بجانب السائق.

فى ذلك اليوم كنت فى شارع نادى الصيد بالدقى ذاهبا إلى وسط البلد واقفا أبحث عن تاكسى.. وكلما شاورت إلى أحدهم وهتفت صائحا: وسط البلد. يشيح السائق بيده ويُكمل سيره.. وهذا أمر غريب.. أرجعنى إلى أيام الثمانينيات الكريهة عندما كان العثور على كنز على بابا أسهل بكثير من ركوب تاكسى.. ويكفى الرجوع لكاريكاتير تلك الأيام لتدرك معاناة زبائن التاكسى من أمثالى مع الفوطة الصفراء حول العداد.. أيام الله لا يرجعها. الآن تقف أقل من دقيقة لتركب سيارة تاكسى جميلة

(١) حركة كفاية (الحركة المصرية من أجل التغيير): هى تجمع لمجموعة من المثقفين معارض للرئيس مبارك، تشكلت فى صيف ٢٠٠٤.

تختارها أنت من ضمن عشرات السيارات. إلا فى هذا اليوم، حتى تفضّل سائق تاكسى وتوقف وطلب منّى ٧ جنيهات، صرخت أنا «ليه» ؟

رد علىّ قائلا : فيه مظاهرات والدنيا فوق بعضها وحاوصلك فى ساعة . . أقولك ٧ جنيه مش حيقضوّا ح آخد عشرة جنيه .

لا أطيل عليكم قبلت أن أدفع عشرة جنيهات فى المشوار الذى أدفع فيه عادة ثلاثة جنيهات .

وبالفعل كان السير مستحيلا . . فقد تلاصقت وتكدّست السيارات فى الشارع، لا تتحرك قيد أنملة، وكأننا فى جراج عملاق تحول إلى سجن ونحن محبوسين داخله .

أنا : إيه الحكاية؟

السائق : مظاهرات . . مش عارف ليه؟ فيه ييجى متين واحد ماسكين لافتات وحواليهم ييجى ألفين عسكرى ومتين ضابط وعربيات أمن مركزى قافلة الدنيا .

أنا : كل الزحمة دى على متين واحد؟

السائق : الزحمة مش من المظاهرة . . وهى دى مظاهرة أصلا، إحنا كنا زمان بننزل الشارع بخمسين ألف . . بميت ألف . . إنما دلوقتى مفيش حاجة لها معنى . . كام واحد نازلين من بيتهم عشان حاجة ماحدش عارفها، والحكومة مرعوبة، ركبها بتخبط فى بعضها . . حكومة والله نفخة وتقع . . حكومة من غير ركب (يضحك عاليا) .

أنا : إيه الحكومة محتاجة كوارع ؟

السائق : ولا ينفع معاها حاجة . . نفخة كدابة، لكن المشكلة فينا إحنا .

أنا : إزاى ؟

السائق : عارف إيه يا أستاذ بداية النهاية .

أنا : إيه ؟

السائق : ١٨ و ١٩ يناير .

تعجبتُ كثيرًا من هذا الرد . . كانت أول مرة أسمعه، توقعت إجابات كثيرة تقليدية عن بداية النهاية، ولكن ١٨ و ١٩ يناير؟! جديدة . وتساءلت هل يعرف يا ترى أن تلك المظاهرات التى أطلق عليها السادات «انتفاضة الحرامية» وقعت عام ١٩٧٧؟

لا أعرف على وجه اليقين لماذا تساءلت هذا السؤال الغبى .

أنا : ودى كانت سنة كام ؟

السائق : فى السبعينات . . يعنى حوالى سنة ٧٩ .

أنا : وليه دى كانت بداية النهاية؟

السائق : دى آخر مظاهرات بجد فى الشارع . . عملنا فى الستينات مظاهرات كتير وفى السبعينات قبل الحرب كان فيه مظاهرات ياما . . وبعدين السادات الله يجحمه مطرح ما راح . . طلّع قرارات غلاّ لنا الدنيا . . الدنيا اتقلبت . . الناس كانت فاهمة

سياسة، نزلت الشارع وخلّت السادات يرجع فى كلامه . . سمعنا ساعتها إنه خاف وهرب على أسوان، وقال لك لو قلبت جد حهرب على السودان . . جبان . . يوميها والله أى حد كان ممكن يمسك السلطة، بس ماكنش فيه حد، شوية غلابة عايزين الأسعار ترخص .

أيام عبد الناصر عملنا مظاهرات كسّرت الدنيا وفجأة لقيناه وسطينا فى ميدان التحرير ولا طلع أسوان ولا حتى بيتهم . . الكلام ده بعد النكسة مش فاكر إمتى بالظبط . .

أنا : أنا برضه مافهمتش ليه ١٨ و ١٩ يناير كانت بداية النهاية ؟

السائق : الحكومة عرفت بعدها إنها لازم تتصرف . . وإن المظاهرات دى أصبحت خطر عليها بجد . . ١٨ و١٩ يناير ماكانتش أى حاجة، دى كانت بداية ثورة لكن تقول إيه . . ماكملتش . . ومن ساعتها الحكومة زرعت فينا الرعب من الجوع، خلت كل زوجة تمسك فى إيد جوزها وتقوله إوعى تنزل . . العيال حتموت . . زرعوا الجوع فى بطون كل مصرى، رعب خلاّ كل واحد يقول ياللا نفسى، أو يقول وأنا مالى هى جت علىّ، ١٨ و١٩ يناير كانت بداية النهاية .

هل كانت ١٧ و ١٨ يناير فعلاً بداية النهاية؟ وما هى تلك النهاية التى يتحدث عنها هذا السائق بكل تلك البساطة وكل هذا اليقين؟

(٤)

خرجت من سينما جالاكسى بعد أن شاهدت فيلم يسرى نصر الله[1] الرائع «باب الشمس»، وقد شاهدت الجزأين بشكل متتال وكنت فى حالة انتشاء وسعادة بالغة بهذا العمل المبهر . . أما قلبى فكان يرفرف عاليا وشعرت أنى أسير على ارتفاع خمسة سنتيمترات فوق الأرض .

أوقفت تاكسى فى شارع المنيل وقبل أن أجلس قلت للسائق وسط البلد . . أجاب بصوت خافت تفضل . .

دخلت السيارة وأغلقت الباب ونظرت أمامى فشاهدت مشهد الكهف فى الفيلم على بربريز التاكسى، المكان الوحيد الذى لم يتم احتلاله بعد من المحتل، وامتلأت روحى بالموسيقى الجميلة لصديقى تامر كروان، ثم اكتشفت بعد فترة أن السيارة لا تتحرك والطريق خال أمامنا .

---

(١) يسرى نصر الله : ١٩٥٢، مخرج سينمائى مصرى، وهو مخرج فيلم باب الشمس (٢٠٠٤).

نظرت إلى السائق فوجدته فى سبات عميق . . لم أعرف ماذا أفعل هل أنزل وأتركه نائما ، ترددت قليلا ، وفى النهاية لمست كتفه فانتفض مذعورا ووضع يديه على الفيتيس بشكل تلقائى وتحرك بالسيارة ، ثم سألنى على فين إن شاء الله؟ فأجبت وسط البلد . . اعتذر لى السائق عن غفوته . . ولم تمر سوى ثوان معدودة وإذا بالسيارة تنحرف قليلا إلى اليسار . .

فنظرت إلى السائق ووجدت جسده كله ينحرف هو الآخر يسارا . . وهو نائم تماما . .

صرخت مذعوراً وأمسكت المقود فاستيقظ السائق وأنقذ الموقف واعتذر ثانية . . فطلبت منه أن يتوقف كى أنزل . . حلف لى بالأيمان أنه لن ينام ثانية وأنه سوف يصل بى إلى وسط البلد سالما غانما .

طار انتشائى بفيلم «يسرى» وتوقف قلبى عن الرفرفة وانتابنى القلق والتوجس ، وبالفعل لم تمر دقيقة إلا ووجدت السيارة تميل يسارا وجسده يميل يمينا نحوى حتى أن كتفه لامست كتفى!

صرخت مرة أخرى فعدل مسار المقود وأكد لى بلهوجة أنه ليس نائما وبدأ يتحدث كى لا ينام .

السائق : أصل أنا بقالى ٣ أيام فى التاكسى . . ماتحركتش منه خالص

أنا : ٣ أيام . . إزاى يعنى ؟

السائق : النهاردة ٢٧ . . فاضل لى تلات أيام ولازم أدفع قسط العربية . . العربية عليها ١٢٠٠ جنيه فى الشهر ، من ٣ أيام حلفت على مراتى يمين طلاق بالتلاتة ما أنا راجع البيت من غير ما أدفع فلوس القسط كلها . . ماكانش معايا منهم غير متين جنيه ومن ساعتها دخلت العربية وماخرجتش منها غير لامؤاخذة للتبول بس . . باكل فيها وباشرب فيها . . بس مش بنام ، لازم أجيب فلوس القسط ولازم أدفعه قبل نهاية الشهر .

أنا : بس إيه الفايدة إنك تجيب فلوس القسط وتموت . . ما إنت ممكن تعمل حادثة وتروح فيها ، وأروح أنا كمان معاك .

السائق : عمر الشقى بقى والأعمار بيد الله . . ومحسوبك شقى قوى وأهى هانت ، فاضل ييجى ٣ أيام كمان وألم فلوس القسط . .

أنا : طب ما تروح تنام لك ساعتين ولا تلاتة . . مش حتفرق معاك ، ويا سيدى خليهم تلات أيام وتلات ساعات .

السائق : أنا حلفت يمين طلاق تلاتة . . وأصل حضرتك مش فاهم . . إحنا بناكل اليوم بيومه ، والطقة بطقتها . . يعنى لو روحت البيت ح ألقى ميت مصيبة ومصيبة ، وح ألقى العيال مش واكلة وأمهم حايسة ولايصة . . لا يا سيدى يفتح الله . . أنا مش

حتحرك من التاكسى ده إلا على الأستاذ إبراهيم عيسى أدفع له القسط وتمام التمام وبعد كده أروح . .

تركته والقلق ينهشني . توقفت بعد نزولي من التاكسى، وتبعت السيارة بنظرى وهى تسير مبتعدة وأنا أتوقع فى أية لحظة أن ينام سائقها وتحدث الكارثة، لكن السيارة لم تنحرف حتى اختفت تماما عن ناظرى .

❊ ❊ ❊

(٥)

السائق : وبيسألوا الاقتصاد بايظ من إيه؟؟

بايظ من الناس . . تصدق بلد زى مصر . . شعبها بيدفع أكتر من عشرين مليار جنيه فى السنة على التليفونات . . عشرين مليار جنيه، يعنى لو متكلمناش سنتين ولا تلاتة، مصر ح تختلف؟

شعب مهووس والله . . مش لاقى ياكل وكل واحد ماشى معاه موبايل وفى بقة سيجارة . .

رجالة المفروض عندها مخاخ وبتدفع كل فلوسها على المصيبتين دول التليفونات والسجاير، وفى الآخر يقولوا أصل البلد حالتها مش ولا بد .

كل فلوس الناس بتروح فى جيب أربع شركات . . الاتصالات وموبينيل وفودافون وشركة الشرقية للدخان[1] .

---

(١) تحقق مصر واحدة من أدنى معدلات الادخار فى العالم، حيث بلغ متوسط معدل الادخار من ١٩٩٨ إلى ٢٠٠٤ نحو ١٣,٦٪؛ نتيجة لسيادة الثقافة الاستهلاكية التى تروج لها أجهزة الاعلام، مما يمنع زيادة معدلات نمو الاقتصاد المصرى .

والإعلانات الله يخرب بيتها عمالة تضغط على الناس اشتركوا فى موبينيل، لا اشتركوا فى فودافون . . عالم مجنون . . الإعلانات دى لازم تتمنع . . عالم أكاذيب ومفتوح علينا طول النهار وطول الليل . . ماشى فى الشارع شايف إعلانات . . تفتح الراديو إعلانات . .

تروح البيت تلاقى التليفزيون مفتوح . . إعلانات . . وكلها سفالة وكدب . .

والناس عاملة زى المواشى ماشية وراء إعلانات وعمالة تُكع فلوس وفى الآخر يقولوا لنا البلد مافيهاش فلوس .

إزاى يعنى؟ أمال المليارات اللى بتتصرف على كلام فى الهواء جاية منين؟

مش الفلوس دى أولى تروح على الأكل وعلى السكن وعلى التعليم وعلى الصحة . . بس تقول لمين . . إذا كان رئيس الوزارة بتاعنا هو رئيس التليفونات . . يعنى بتاع الكلام فى الهوا . .

بس بصراحة المشكلة مش فى الحكومة، المصيبة فى عَبَط الناس اللى عمالة تفرتك فلوسها على الهواء والدخان .

أنا لو مسكونى البلد دى يوم واحد، لأ دقيقة واحدة . . القرار الوحيد اللى ح أطلعه هو منع الإعلانات .

زمان على أيامنا كانت الإعلانات لخدمة المجتمع همه كام إعلان، وكان الله بالسر عليم، إنما دلوقتى الإعلانات لخراب المجتمع وحتخربها وتقعد على تلها . وابقى قول أبو إسماعيل قال لى .

* * *

(٦)

نادرا ما ركبت مع سائق تاكسى لم يختبر تجربة الهجرة، بعضهم سافر لفترات طويلة إلى أكثر من دولة.

أما هذا السائق فتجربته فى مجال الهجرة بدأت منذ عام ١٩٧٧ وحتى عام ٢٠٠٤ متقطعة على حد قوله، ولكنه ما كاد أن يعود للوطن حتى يبدأ من جديد. سافر إلى العراق والكويت والسعودية وليبيا ومر بالطبع على الأردن وسوريا.. تجربة حية مع أحد دخول مصر الرئيسية وهى تحويلات المصريين المقيمين أو المضطرين للإقامة فى الخارج.

انتقد السائق بعنف الأوضاع فى مصر.. وأكد لى أنه شبع شعارات جوفاء عن حب الوطن، «ولو لم أكن مصريا»، الكلام اللى ولا بيودى ولا بيجيب. وشرح لى أنه عاد منذ عامين مضطرا لظروف خارجة عن إرادته والمضطر يركب الصعب.. والصعب فى حالته أنه يقيم الآن فى هذه الدولة الوسخة على حد قوله. كل ذلك كلاسيكى إلى حد كبير وليس فيه جديد ومشترك لدى شريحة كبيرة من السائقين ولكنه حكى لى قصصا عن الغربة،

جديدة على أذنى التى سلمتها لهؤلاء الكادحين منذ قرابة ربع القرن. قال لى:

ـ عارف إيه الفرق الكبير بين السادات ومبارك؟

كنت بالطبع لا أعرف الفرق الحقيقى فلم أرد.

ـ الفرق يا سيدى إن السادات كان مهتم جدا بأولاده اللى خارج مصر.. كان الراجل حامينا بحق.. أما مبارك فالراجل قلبه ضعيف.. وسايب البلاد تاكل فينا زى ما تاكل ولا هو سائل.. طب أنا أحكى لك حكاية ولا حكايتين عشان تفهم الحركة دى. (لا معنى على الإطلاق لكلمة حركة هنا ولكنه قالها هكذا) فى السبعينات اليونان فتحت موضوع دخول المصريين ليها على البَحَرى، جت آخرتها الحكومة اليونانية صوّتت لما لَقت إن عدد المصريين كتر قوى وبيحصل تهريب كتير.. قام عملوا إيه؟

(إيه؟).

عرضوا فيلم مصرى أظن كان «أبى فوق الشجرة»[1] بتاع حليم فى أكثر من سينما فى الأحياء اللى فيها المصريين.. راحوا طبعا المصريين يحضروا الفيلم وفى نصه كبس البوليس ولِم لِم لم

(١) أبى فوق الشجرة: فيلم من إخراج حسين كمال، ومن إنتاج عام ١٩٦٨، أول عرض ١٧ فبراير ١٩٦٩.

على البوكس وبعدها على التهجير!! حطوهم كلهم فى مركب علشان يطلعوهم على الإسكندرية. . أصل كان معظمهم إسكندرانية، مين عرف بالموضوع ده. . السادات. . الراجل إتجنن. . كلم السفير بتاعه وقاله أول ما المركب تتحرك من الميناء إدينى خبر. . وبالفعل السفير راح مكلمه وقال له السفينة اتحركت يا أفندم. . راح مكلم وزير الداخلية وطلب منه يلم مائة يونانى فورا وبدل ما يهجرهم بمركب راح مطلعهم على طيارة. .

رئيس الوزارة اليونانى أما عرف بالخبر كلم السادات. . راح ده قايل له اللى تعملوه فى ولادى أعمل زيه فى ولادكم. . وبعدين راح مهدده وقال له إنت لسه ما شفتش حاجة. . فما كان من رئيس وزارة اليونان إلا إنه كلم المركب اللى عليها المصريين وقال لهم لفوا وارجعوا تانى. . ورجع كل المصريين اللى كانوا على المركب أتينا. . وراحوا كمان مديينهم إقامة. تصدق بالله إقامة.

دى حكاية معروفة جدا. . إزاى حضرتك ماتعرفهاش. . هو ده كان السادات. . بيدافع عن كل مصرى بره.

أكدت له أننى - رغم شهرة الحكاية - أول مرة أسمع بها. فقال لى :

طب اسمع دى، أصل حكايات السادات كتير بس دى حلوة. . كان فيه تتش (Touch) بين مصر والبلاد العربية بعد

(٧)

اخترقنا ميدان التحرير . . وقد تحول إلى ثكنة عسكرية بفضل سيارات الأمن المركزى العملاقة والعدد الكبير من الضباط والعساكر، وكان ذلك بعد حوالى الشهر من العملية الانتحارية أو الإرهابية أو الغبية أو المتخلفة أو اليائسة التى أدت إلى مقتل منفذها وإصابة عدد من السياح من ضمنهم إسرائيلى، أدت إلى مزيد من الازدحام فى القاهرة إلى درجة أصبحت لا تطاق .

انحرفنا إلى شارع رمسيس ففوجئت بصف لا ينتهى من سيارات الأمن المركزى مصطفة على يمين الطريق . نظرت مشفقا إلى هؤلاء البائسين من عساكر الأمن المركزى القصار القامة من سوء التغذية والذين يبدو عليهم أن البلهاريسيا تأكل أجسادهم . نظر إلىّ أحدهم من شباك صغير يشبه شباك الزنزانة نظرة استجداء . وجه لى السائق نظرة ساخرة وسألنى :

- السائق : عرفت يا باشا الحكاية الفظيعة اللى حصلت للظابط إمبارح؟

آجبت أنا بالنفى فأكمل القصة : «بيقولك واحد ظابط دخل على العساكر بتوعه فى العربيات دى (وأشار إلى سيارات الأمن المركزى) فمات من الريحة!» .

ثم انفجر ضاحكا . لم أضحك فأكمل هو :

«إنت متصور سعادتك ريحة الغلابة دول فى الحر ده وهمّا محشورين فى العربية دى زى السردين؟ عمّالين يعرقوا ويجيّصوا . . الظابط يا عينى راح فطيس . . مات باسفكسيا الخنق» .

بدا على وجهى الاستغراب وسألته : «حصلت فعلا الحكاية دى؟» .

السائق : صباح الفل يا باشا . . دى نكتة . . لقيتك مكشر قلت اضَحَّك معاك شوية .

أنا : والله أنا مكتئب شوية ، بس ماكنتش واخد بالى إن شكلى باين عليه للدرجة دى .

السائق : ماحدش واخد منها حاجة . . طيب اسمع دى . . «واحد ماشى فى الصحراء لقى مصباح علاء الدين . . دعكه . . طلع له الجنى . . قال له شبيك لبيك أمرك بين إيديك ، الراجل مصدقش عينيه وراح طالب مليون جنيه . . راح الجنى مديله نص مليون . . قال له طب وفين النص التانى إنت حتخنصر من أولها ،

الجنى رد عليه وقال له أصل الحكومة مشاركة فى المصباح فيفتى فيفتى». ثم انفجر ضاحكا.

أضحكتنى ضحكته أكثر من النكتة.

السائق: إنت عارف إن الحكومة فعلا بتاخد ييجى نص مكسبنا؟

أنا: إزاى؟

السائق: عن طريق التقليب.. كل شوية يطلعوا لنا فى حدوتة جديدة.. بس بصراحة أحلى واحدة بتاعة الحزام.

أنا: ماله الحزام؟

السائق: الحزام ده نكتة.. ونكتة بايخة وسكِّتها الوحيدة التقليب.. حزام للسواق وللى قاعد جنبه زى بلاد بره ولاد الـ... والأغلبية فى البلد دى بتمشى بالكتير على ٣٠ كيلو متر فى الساعة بس تقول سعادتك إيه بقى.. بيزنيس.

فجأة كده قالوا لك لازم تركب الحزام والمخالفة بخمسين جنيه وراحت نزلة حزمة نار، الحزام ما يقلش عن ميتين جنيه.. طبعا سبوبة داخل فيها ناس كبار.. كبار قوى، تصور حضرتك فيه كام تاكسى فى مصر وفيه كام عربية فى مصر ماشية ومافيهاش حزام.. عد إنت بقى.. شغل بالملايين يا باشا، شغل على مية بيضاء.

أنا: الحزام إجبارى فى كل حتة فى العالم.. حزام أمان لازم يتركب.

السائق: عالم إيه وزفت إيه، دى حكومة بنت عرص، إنت عارف إن الحزام قبلها على طول كان بيعتبر كماليات، يعنى كان بيعتبر فى الجمرك زيادات لازم تدفع عليها جمرك زيادة، أنا كنت مدخل عربية تويوتا من السعودية واضطريت أقطع الحزام بإيديا وأشيل التكييف عشان ما أدفعش عليهم جمرك كماليات.. مفيش بعدها بكام شهر الحزام بقى إجبارى يعنى من كماليات وزيادات لإجبارى عدل.. تقول إيه.. جرينا اشترينا حزمة وعملوا علينا شغل تمام.

الحكاية كلها بيزنيس فى بيزنيس، الكبار قوى استوردوا الحزمة وباعوها وكسبوا ملايين، والداخلية اشتغلت مخالفات الله ينور ولموا ملايين، والعساكر الغلابة بتوع الشارع يوقفوك ويقولك الحزام يا بن الكلب وينوبه خمسة جنيه ولو وقفك ومعاه ظابط حينوبه عشرين.. يعنى الكل مستفيد.

وبعد كده عايز أقولك حاجة.. إنت أكيد عارف إن الحزام ده أصلا كدب فى كدب، الكل عارف إن الحزام ده ديكور يعنى بنركبه أونطة، بص.

(ورفع السائق أمامى الحزام لكى يرينى أنه ليس مربوطا).

والظابط لو وقفك بيبص على الحزام وهو عارف كويس قوى

إنه ديكور . . الحزام ده لازم أما تدوس على الفرامل يشد معاك ، أما عربياتنا فلما بتضرب فرامل . . الحزام يفك معاك .

(يضحك بصوت عالٍ) .

إحنا عايشين فى كدبة ومصدقينها . . والحكومة دورها الوحيد تراقب إن إحنا مصدقين الكدبة ، ولا لأ ؟

* * *

(٨)

أنا : إنت بتروح سينما ؟

السائق : السينما . . ياه . . أنا بقالى مليون سنة مارحتش سينما . . استنى كده . . أنا فاكر آخر مرة رحت سينما كان سنة أربعة وتمانين . . كانت سينما القاهرة أو بيجال فى شارع عماد الدين .

بعدها الحياة فرمتنى فرم . . بقيت عامل زى «فرج الله» (ماركة لحم مفروم) من يومها مارحتش ولا سينما ولا مسرح ، رغم إن أنا كنت بروح سينما كتير أوى فى أواخر السبعينات . . كنت ساكن فى شارع الجيش . . عارف محمود بتاع الفسيخ ؟

أنا : أيوه عارفه .

السائق : ده أعظم فسخانى فى الدنيا .

أنا : وإنت كنت ساكن جنبه ؟

السائق : أيوه أنا كنت ساكن جنبه على طول .

هناك فى شارع الجيش كان فيه سينما هوليوود دى كانت

بتعرض خمس أفلام فى البروجرام . . اتنين أجنبى وواحد عربى . . وبعد كده بتعيد الاتنين . . إحنا كنا بنتفرج على التلات أفلام وبعديها نشوف الإعادة ، وأوقات تانية كنا بعد التلات أفلام ما يخلصوا نعدى الشارع ، كان على الناحية التانية فيه سينما مصر ، الله يرحمها ويرحمهم جميعا ، دى كانت شتوى وصيفى . . الصيفى كانت فوق . . كنا ندفع للراجل أى حاجة وننط ونتفرج على أفلام الإعادة بتاعة سينما مصر . أيام ماتتعوضش . . كانت ساعتها التذكرة بخمسة تعريفة .

أنا : ولسه فاكر الأفلام اللى كنت بتشوفها؟

السائق : فيه أفلام مش ممكن الواحد ينساها . . أكتر فيلم كنت بحبه «الشمس الحمراء» بتاع تشارلز برونسون ، تشارلز كانت عنده بصة كدة من تحت البرنيطة كنا نقعد نقلدها . فاكر الفيلم ده؟

. . . . . .

إزاى؟ أفكرك ، فى الفيلم ده كان ماسك واحد يابانى وكان مستخونه فقبل ما يناموا ربط لامؤاخذة الشوز بتاعه فى رباط الواد اليابانى . . جه اليابانى يهرب . . مشى شوية بطول الرباط . . أصل تشارلز كان مطول الرباط حبتين . . وفجأة راح واقع وتشارلز صحى من النوم .

أما أحلى فيلم مصرى بالنسبة لى كان سواق الأتوبيس بتاع نور ، ده بقه شفته ييجى عشر مرات .

وكان فيه كمان فيلم أمريكانى عظيم بس مش فاكر بتاع مين اسمه «عندما تثور الوحوش» وطبعا «جودزيلا والوحش الذرى» و «الرأس الكبير» بتاع بروس لى و «الصديقان» الهندى .

وأما نزل «الفيل صديقى» نزل فى الشرق فى السيدة زينب رحنا رايحينه . .

أنا : وماكنتش بتروح مسرح؟

السائق : إزاى . . كنت بروح مسرح الطليعة ، كنا بنجيب تذاكر بعشرة صاغ . . آه أنا كنت مجنون فن والله . . بس تقول إيه بقى . . طب تصدق بالله .

أنا : لا إله إلا الله .

السائق : أنا اشتركت فى فرقة مسرحية . . اسمها فرقة «الثائر الحديث» كانت فى شارع جلال .

أنا : فين شارع جلال ده؟

السائق : ده شارع متفرع من شارع عماد الدين قدام سينما بيجال على طول . . كنت مرة باكل كشرى فى جحا ، ده أشهر محل كشرى فى مصر . . وشفت شباب كتير واقف . . وعرفت إنهم من فرقة «الثائر الحديث» . . وقالوا لى إنها فرقة اتخرج منها كتير من الكبار قوى زى خيرية أحمد . . وإنها تبع وزارة الثقافة . .

أنا : وبعدين .

السائق : اتقدمت وبديت أعمل بروفات . . كان فيه مشهد كده بندخل فيه على فندق ونقعد نده :

«يا أهل الله ياللى هنا ، يا أهل الله ياللى هنا» ، وبعدين قالوا لنا نجيب هدوم من عندنا . .

وبعدين قالوا لنا كمان لازم نجيب متفرجين . .

قلت أنا فى عـقلى مش ممكن تكون الفـرقـة دى تبع وزارة الثقافة . .

اللبس علينا والزباين كمان ؟!

ورحت كاتت .

أنا : وإيه اللى حصل بعد كده ؟

السائق : ماعرفش إيه اللى حصل . . الدنيا إتغيرت ، ولا أنا اللى إتغيرت . . تصدق بالله . .

أنا : لا إله إلا الله .

السائق : أنا أول مرة أتكلم فى الموضوع ده . . وماكنتش واخد بالى إن أنا بقالى ييجى حاجة وعشرين سنة ما شفتش فيلم .

أنا : والذكريات دى كلها ، حتخلّيك تروح تانى سينما؟

السائق : أنا بالصدفة كنت بوصل زباين من ييجى أسبوع فى

برج ساويرس اللى على الكورنيش . . ولقيت لك تذكرة السينما بقت بخمسة وعشرين جنيه . . يعنى بالظبط ألف ضعف السعر من عشرين سنة بس ، تتصور ألف ضعف ، أنت تعرف حضرتك حتى السينمات الغالية لغاية بعد سنة تمانين كان كبيرها ستاشر قرش ونصف التذكرة . . زى سينما مترو وراديو وقصر النيل وكايرو وميامى .

وبعدين دلوقتى أغلبية السينمات بتاعتنا خلاص قفلت ، سينما هوليود بقت حاجة تانية ، وسينما مصر وسينما ريو بتاعة باب اللوق وسينما ستار بتاعة شارع خيرت وسينما إيزيس وسينما الأهلى وسينما الهلال الصيفى بتوع السيدة زينب . . وغيرهم كتير أوى كلهم قفلوا . .

عامة أنا اللى شفته شفته واللى ما شفتوش إجعلنى ما شفته ، الدور والباقى على عيالى . . عمرهم ما راحوا لا سينما ولا مسرح . . ولا حيروحوا . . بيتفرجوا على الدش على القهوة اللى تحتينا ، ربنا معاهم . . أنا شخصياً مش عارف إيه اللى ممكن يطلع فى أمخاخهم غير الصبّار .

❋ ❋ ❋

(٩)

أدار السائق زر تشغيل الكاسيت . . وانطلق صوت جهورى يحذر من المرأة ، ويقول «أحبائى فى الله دعونا نتكلم اليوم عن الفتن التى تحيط بنا ، فلا شك أن أكثر فتنة تحيط بالمسلمين هى فتنة النساء . . اللهم نعوذ بك من شر النساء ، قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إن أول ما فتن أمة إسرائيل كانت النساء . . ولكل أمة فتنة . . وفتنة هذه الأمة المال ، ولكن النساء أيضا ، النساء فتنة عظيمة . . خطيرة إلى أبعد حد . . حقيقة أنا كنت أظن أن الفتن ستنحسر ، فى أواسط الثمانينات ظهر الميكروجيب القصير جدا ، وانحسرت هذه الموضة فى التسعينات فظننا أن الأمر قد زال . . فإذا به فى هذه الأيام على أشُده . . بما لم يشهد له العالم مثيلاً .

البنات فى سن صغير من ١٣ لـ١٨ سنة صاروا أسوأ شىء يُرى على ظهر الأرض . . وللأسف الشديد علمت من كثير من الشباب وسائقى الميكروباص والتاكسيات أن الزنا صار منتشراً وواضحًا بل مشهوداً بل وبإقرار آباء وأمهات وأزواج

وزوجات . . ونسأل الله أن ينتقم من الظالمين وأن يحفظ شباب المسلمين . . مصيبة . . مصيبة . التبرج اليوم أصبح عرى ، البنت تلبس فانلة وبنطلون وكأنها لا تلبس شىء . . وصدق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين قال «كاسيات عاريات ، رءوسهن كأسنمة البخت ، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها» .

اللهم احفظ بنات المسلمين واستر عورات المسلمين .

مصيبة . . مصيبة . . الشباب عينيه يمين وشمال تقع على أجساد عارية ، ونظرات شهوانية ، وضحكات داعرة . . متسيبة . . ونساء لا راد لها .

عندما نمشى مع بعض الشباب ويقول الشباب شوف يا شيخ . . أقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ولكن أتذكر أى أب محترم يسمح أن ابنته تخرج من عنده بالشكل ده؟؟ كأنه بيقول روحى عشان يتزنى فيكى .

أطاحت هذه الجملة الأخيرة من هذا الشيخ الفاضل بالبقية الباقية من صبرى . . فبادرت السائق قائلا :

أنا : إيه الكلام الفارغ ده ؟

السائق : كلام فارغ ! ! كلام فارغ إيه يا أستاذ متقولش كده . . ده كلام الشيخ «محمد حسين يعقوب» ، عنده حق فى كل كلمة

بيقولها . . البنات . . يا ساتر يارب دول وبال علينا والعياذ بالله، دول كلهم اتحولوا ولا مؤاخذة لداعرات . . أنت حضرتك مش بتمشى فى الشارع علشان تشوف بنفسك الأحمر والأخضر اللى على وشهم . . ملطخينه بروح الشيطان .

حاولت مقاطعته فلم أفلح فقد انطلق كالرصاصة فى اتجاه أذنى .

السائق : إنت حضرتك ما يخيلش عليك الحجاب اللى هما لابسينه . . شوف البنطلون المحزق والهباب اللى ملطخين بيه خلقتهم . . وماقولكش بقى فى الصيف وإيه اللى بيحصل . . اللهم اكفينا شرهم . . سعادتك العرب بييجوا ويملوا المهندسين . . تبص حضرتك تلاقى البنات فى جامعة الدول العربية والبطل أحمد عبد العزيز زى النمل . مصيبة والعياذ بالله . . البنات عايزة الدبح . . لأ والله الدبح قليل عليهم . . دول عايزين الحرق .

عامة دى من علامات الساعة . . أصل الساعة قربت جدا . . الانحلال بيعم . . والأخلاق مفيش . . والفساد على ودنه، كل دى من علامات الساعة .

يئست من محاولة الحوار معه . فقررت الاكتفاء بالاستماع إليه .

السائق : سمعت حضرتك إن فيه بلاد بقى عدد الستات فيها

أكتر بكتير جدا من عدد الرجالة . . ما أقولكش بقة عن الانحلال فى البلاد دى شكله إيه . . ما هى دى كمان من علامات الساعة . .

وأهم حاجة منسوب المياه فى بحيرة طبرية . . بيقولوا إن يوم الساعة حتكون البحيرة دى ناشفة تماما ودلوقت سمعت إنها خلاص بتنشف ما فضلش من المية غير القليل .

واللى بيحصل فى فلسطين وفى القدس . . المسألة واضحة تماما كلها كام سنة وخلاص من اجتهد لله حيترفع للجنة والبقية حيتخفس بيهم الأرض إن شاء الله . اللى واكلينها والعة وماصّين دمنا حيصلوا فى نار جهنم إن شاء الله . .

والدور والباقى على الستات . . دول حيتشووا على النار لغاية ما يقولوا يا كفى .

* * *

حمدت الله من كل قلبى أننى قد وصلت . .

هربت من التاكسى قبل أن تصلنى لعناته . . وحمدت الله أننى لست امرأة، فقد كان يمكن أن أموت حسرةً من كل ذلك الظلم الذى لحق بى مع هذا الرجل .

تذكرت الرواية الجميلة لأمين معلوف[1] «رحلة

(١) أمين معلوف : ٢٥ فبراير ١٩٤٩ ، روائى وصحفى فرنسى من أصل لبنانى .

بالـداسار»[1] المستندة على أصل تاريخى والتى تمحورت على انتظار الناس عام الوحش، عام نهاية العالم بظهور المسيح الدجال عام ١٦٦٦، كانوا فى انتظار الإشارات لقيام الساعة.

ولكل زمن ناسه الذين يأملون فى يوم قيامة قريب لإنصافهم من الظلم والجور.

* * *

(١) رحلة بالداسار: رواية لأمين معلوف، دار جراسيه للنشر عام ٢٠٠٠.

(١٠)

كانت سيارة الأجرة لا تستطيع أن تتحرك من شدة الزحام فى شارع عباس العقاد بمدينة نصر. الساعة التاسعة مساء واجهات المحلات تتلألأ بأنوار النيون حتى إنى كنت أغمض عينى من لمعة الأضواء.. وتسلل إلى السيارة من أحد المقاهى أو المحال صوت كاظم الساهر يغنى لمعشوقته.

مصمص السائق شفتيه وقال بحسرة:

«يا عينى يا عراق، يا حسرة قلبى عليكى».

أنا: رحت العراق يا ترى؟

السائق: قضيت فيها أحلى سنين عمرى.. العراقيين دول أجدع ناس.. لغاية دلوقتى مش قادر أصدق اللى حصل للعراق، مش ده اللى كنت متخيله خالص.. يا عينى يا عراق..

أنا: إيه اللى كنت متخيله؟

السائق: بصراحة كنت حاسس إن صدام حيتنصر على

الأمريكان، حتى لما شفت بعينى الدبابات الأمريكانى بيتمشوا فى شوارع بغداد . . قلت فى عقل بالى دى خطة صدام عاملها علشان يدخّلهم بغداد وبعدين يعمل عليهم كماشة ويقضى عليهم . . مش قادر أصدق لغاية دلوقتى . . بس برضه رجالة . . مافيش يوم عدّى إلا وقتلوا كام واحد أمريكانى . . حيصفّوهم واحد واحد إن شاء الله . .

أنا : من بُقك لباب السماء . . بس أنت مش شايف إن صدام هو السبب فى البلاوى دى ؟

السائق : أنا بأمانة بحب صدام . . كان له مواقف جدعنة كتير أوى مع المصريين . . ماتنساش إنه درس فى القاهرة . . فى التمانينات وأنا فى العراق كان فيه شوية رخامة مع المصريين . . لقيت لك صدام طالع يقول خطبة وراح قايل إن أى عراقى يتعرض لواحد مصرى حياخد ست شهور حبس . . حبس كده على طول . . بصراحة موقف مايتنسيش . . بعدها كنا بنمشى فى بغداد مرفوعين الراس . وبعدين اللى حصل فى العراق ده احتلال رسمى نظمى فهمى، مالوش علاقة ولا بصدام ولا بأى حاجة . . قالوا عندهم أسلحة خطرة وأهوه مالاقوش حاجة .

عايزين البترول بتاعهم، قاموا احتلوهم، شوية لصوص، على شوية بلطجية، وضربوا كرسى فى الكلوب . . دمروا العراق يا عينى . .

بس زى ما بقولك كده . . أنا عارف العراقيين كويس ومعاشرهم فوق العشر سنين . . دول شعب رجالة . . وحيطلّع عين الأمريكان . . كلها كام شهر وحيهربوا ولاد الكلب من هناك ديلهم فى سنانهم، حينفدوا بجلدهم قبل ما يحصل فيهم زى اللى حصل لهم فى فيتنام . . والله العراق حتبقى أسوأ كمان . .

أنا : وإمتى عرفت إن دى مش حركة عاملها صدام وإن بغداد سقطت فعلا ؟

السائق : والله أنا كان عندى أمل لغاية ما قبضوا على صدام . . يوميها عيطت عياط، وحسيت إن إحنا بنتفعص زى الحشرات حسيت إنى نملة وأى حد حيهرسنى . . حسيت بمهانة وفكرت فى كل أصحابى هناك ويا ترى أحياء ولا موتى . . بس أنا بقول لحضرتك حاجة وابقى افتكرنى العراق هو اللى حينتصر فى النهاية والعبرة باللى يضحك فى الآخر مش فى الأول .

سرت فى روحى شحنة من التفاؤل .

ونزلت من التاكسى تحت منزلى فوجدت أربعة من الشباب يدخنون السجائر المارلبورو ويشربون كوكاكولا ويرتدى أحدهم حذاء نايك ويلبس الآخر تى شيرت على كمه الأيسر علم أمريكا، فتبخرت شحنة التفاؤل وصعدت إلى منزلى مطأطأ الرأس .

* * *

(١١)

السائق: لو حكيت لك اللى حصل دلوقتى. . مش حتصدق، أنا بقالى أكتر من عشرين سنة بأسوق تاكسى شفت بلاوى مالهاش عدد، ولكن اللى حصل دلوقتى من أظرف الحاجات اللى حصلت لى.

أنا: خير. . احكى لى

السائق: واحدة منقبة ركبت معايا من شبرا وقالت لى المهندسين. . ركبت ورا وكان معاها شنطة، أول ما طلعنا على كوبرى ٦ أكتوبر. . لقيتها بتبص يمين وشمال وراحت قالعة النقاب اللى على راسها بصيت أنا فى المراية. . أصل بص أنا عندى مراية صغيرة تحت المراية الكبيرة علشان أشوف اللى بيحصل ورا. . الواحد لازم يحرص. . مش بيقولك حرّص وماتخونّش. . المهم لقيتها محجبة. . استغربت وسكت. . بعدها بشوية شالت الطرحة وكانت رابطة شعرها بالبوجودى. . وبدت تفك فى البوجودى. . وتحطه فى الشنطة، وبعدين راحت مخرجة فرشاة مدورة وبدأت تسرح شعرها. .

بصيت فى المراية اللى قدامى.

صرخت فىَّ وقالت لى: «بص قدامك»

قلت لها: إنتى بتعملى إيه ؟

ردت بزعيق: إنت مالك، سوق وإنت ساكت. .

بينى وبينك فكرت أوقف العربية وأنزّلها وبعدين قلت وأنا مالى وصبرت أشوف حتقلع لغاية فين؟

شوية ولقيتها بتقلع الجيبة. . قلت حلو. . حنتفرج ببلاش.

بصيت لقيتها لابسة جيبة قصيرة ولابسة شراب أسود تخين مش مبيّن حاجة. . طبَّقِت الجيبة الكبيرة وحطتها فى الشنطة. . وبعدها راحت قالعة القميص.

عينى اتحجرت على المراية، العربية اللى قدامى فرملت كنت حاخبط فيها.

صرخت فىَّ زى المجنونة:

«يا راجل يا شايب عيب، سوق قدامك». .

لقيتها لابسة بلوزة محزقة كده وشكلها حلو. . أنا بصراحة ماردتش عليها.

حطت القميص فى الشنطة وراحت مطلعة عدة ماكياج وبدت تحط أحمر شفايف وأحمر على خدودها وراحت مطلعة الفرشاة

بتاعة الرموش وبدت تعمل فى رموشها . . المهم مفيش وأنا نازل من ٦ أكتوبر على الدقى كانت واحدة تانية خالص . . والله بنى آدمة تانية لا يمكن تقول إنها دى المحجبة اللى ركبت معايا فى شبرا . .

وختمتها بأنها قلعت الشبشب اللى كانت لابساه وراحت مخرجة جزمة كعب كباية وراحت لابساها .

قلت لها بصى يا بنت الحلال كل واحد فينا له خصوصياته بس والنبى قولى لى إيه حكايتك؟

بصّت لى البت وقالت لى : أنا نازلة محيى الدين أبو العز . .

سكتّ أنا ومكررتش السؤال . .

بعد شوية لقيتها بتحكيلى : يا سيدى أنا باشتغل جرسونة فى مطعم هناك ، شُغلانة محترمة ، وأنا ست محترمة وباشتغل بشرفى ، فى الشُغل لازم مظهرى يبقى كويس .

فى بيتى وفى الحتة كلها ماقدرش أخرج ولا أدخل غير مُنقبة . . واحدة صاحبتى جابت لى عَقد مضروب فى مستشفى فى العتبة ، أهلى فاكرينى شغّالة هناك . . وأنا بصراحة أكسب لى ألف مرة أشتغل هنا ، أنا ممكن يطلعلى تيبس [1] فى اليوم بمرتب شهر فى المستشفى المعفنة .

---

(١) تيبس : كلمة إنجليزية مستعملة فى الدارجة المصرية بمعنى بقشيش .

والبت صاحبتى بتاعة المستشفى بتاخد منى ميت جنيه فى الشهر عشان تغطى علىّ ، بت مصلحجية ماتعرفش غير نفسها . أنا كل يوم بعَدّى عليها وأغير عندها ، بس النهاردة ماكنش ينفع أعدى عليها فاضطريت آخد تاكسى علشان أغير فيه . . أى أسئلة تانية يا معالى وكيل النيابة .

قلت لها يا ستى أنا ولا وكيل ولا نيابة ، ولو شفت وكيل نيابة حَقَع من طولى . . بس بيقولوا طباخ السم بيدوقه ، وأنت غيّرتى فى عربيتى وكنت عايز أعرف السبب . وإن عرف السبب بطل العجب . . وشكرتها أنها حكتلى .

مش بذمتك يا أستاذ حكاية غريبة؟

* * *

(١٢)

كنت بدردش مع السواق . . وطلع زملكاوى قديم . . كان بيروح الاستاد وهو صغير عشان يتفرج على طه بصرى ومحمود الخواجة وعلى خليل والشباب الورور حسن شحاته وفاروق جعفر . . والسنة دى (فى شتاء ٢٠٠٥) الزمالك عمال يتغلب من كل الفرق .

فحاولت أخليه أهلاوى زيى لكنه قاللى الزمالك حالته مضعضعة وعمال يكسكس لورا محتاج حد يقف معاه مش زى الأهلى فى العلالى مش محتاج ولا واحد يشجعه . . الزمالك عامل زى مصر كده لازم كلنا نقف معاها علشان تبطل كسكسة لورا .

سألته إزاى نقف معاها؟

السائق : نقف مع مصر إن إحنا نجهز ولادنا للحرب . . صحيح إن مبارك قدر يدير الدفة من ساعة ماجه عشان مصر ماتدخلش فى أى مواجهة مع أى حد ، وبصراحة برافو عليه ، دى أحسن حاجة

عملها . الأمريكان يقولوا يمين نروح يمين . . شمال . . نجرى شمال . . بس ده كان مهم الفترة اللى فاتت عشان ناخد نفسنا واقتصاد البلد يشد حيله شوية ونعرف نقف على رجلينا . . والراجل بصراحة عرف يخرج البلد من أى دروب Drop .

لكن الحرب جاية جاية . . الإسرائيليين مش حيقدروا ما يحاربوش ، السلام حيموتهم وهما عارفين كده كويس . . عمالين يقولوا شكّل للبيع . . عينيهم على سوريا وعلى العراق وعمالين يدوا حقن فى إيران ومولعين فلسطين نار . . عايزينها تولع علشان ياخدوا فلوس أكتر من الأمريكان وعشان يصهينوا شبابهم أكتر . . لو المسألة ريَّحت كل اليهود حيرجعوا لأوربا تانى .

يعنى فى الآخر حيلفوا ويرجعوا علينا ، مش بكرة حيبقى بعد بكرة فكل واحد دوره فى البلد إنه يجهز ابنه للحرب . . لأنها جاية جاية . . لازم ندِّى دلوقتى للجيش بتاعنا الروح اللى أنا حاربت بيها من بعد مادخلت الجيش من سنة ٦٨ لسنة ١٩٧٣ .

ده أنا عندى واحد قريبى ظابط فى الجيش . . ظابط شاطر جدا وطلع الاتحاد السوفيتى دورات تدريبية . . الجيش صرف عليه تمام التمام وسفَّره أكتر من مرة لغاية ما بقى كفاءة عالية . .

عارف دلوقتى الظابط ده شغال فين؟

شغال فى دار للقوات المسلحة فى مدينة نصر . . بيعمل إيه؟

بيعمل حفلات ويشترى أكل ويقدم أكل . . حولوه شيف فى مطعم . .

شوف المصيبة لما تحول ظابط، البلد صرفت عليه آلاف الآلاف وتخليه جرسون . . المصيبة إنه مبسوط قوى وفى منتهى السعادة بوضعه دلوقتى .

إنت فى رأيك ح نقدر نستنى كام سنة كمان من غير حرب ؟

أنا : ماعنديش أى فكرة .

السائق : أنا رأيى مش أكتر من عشرة . . خمستاشر سنة كمان . . يعنى أنا عندى ابن عنده عشر سنين، لما يتخرج من الجامعة حتكون الحرب اشتغلت بيننا وبين إسرائيل .

(بعد فترة صمت) .

المشكلة فيهم مش فينا . . هما اللى مش حيقدروا على السلام وإحنا ماينفعش نعمل سلام مع نفسنا . . السلام ده لازم نعمله مع حد تانى ولا إيه ؟

(يضحك من نكتته) .

أنا شخصيا عمال أشرح لولادى الموضوع علشان لما تدق الطبول تبقى ودانهم جاهزة عشان يسمعوا دقتها .

* * *

(١٣)

عند مرورنا أمام أسوار جامعة القاهرة، بُحت لسائق التاكسى بحنينى الجارف لأيام الكلية، واعترفت له أن أحلامى داخل هذه الأسوار لمصرنا ما زالت ترج أسوارى حتى هذه اللحظة رغم مرور عقدين من الزمان على تخرجى فيها، وأن معظم من خان داخل هذه الأسوار قد استلم مفاتيح أبوابها ومعظم من حلم اندكت قلاعه بالمناجيق .

السائق : وإنت كنت فى أنهى كلية ؟

أنا : اقتصاد وعلوم سياسية .

السائق : يعنى حضرتك درست سياسة .

أنا : أيوه .

السائق : طب عال فرصة عظيمة قوى . . علشان أنا من زمان كان عندى سؤال نفسى أسأله .

أنا : وإيه هو السؤال احتمال أقدر أجاوب؟

السائق : يحصل إيه إن إحنا نيجى ونقول لأمريكا إنتى عندك

سلاح نووى وعندك أسلحة دمار شامل ولو ما تخلصتيش من كل الأسلحة دى، ح نقطع علاقتنا بيكى وح نعلن كمان الحرب عليك. . وح نضطر نستخدم القوة العسكرية عشان نحمى كوبا ودى دولة صغيرة. . ولازم نخللى بالنا عليها.

طبعًا الكلام ده كده وكده. . فنعمل موقف فى العالم. والعالم يضطر يقف معانا زى ما وقف معاهم لما قالوا نفس الكلام على العراق. . وزى لما بيقولوا دلوقتى على إيران. . أنا مش بقول إن إحنا نحاربهم. . طبعا إنت أكيد فاهمنى. . إنما نقول نفس الكلام اللى هما بيقولوه بالظبط على دول العالم. . يعنى مثلا نطلب نراقب الانتخابات الأمريكية عشان إحنا مش ضامنين سلامة إجراءات الانتخابات بتاعتهم، ونطلب يبقى فيه مراقبة دولية على صناديق الانتخاب، وبعدين ح يبقى عندنا حق فى الكلام ده. . ما كل الناس فى أمريكا وفى العالم اتكلموا إن فيه تزوير فى انتخابات بوش وإن أخوه فى الولاية بتاعته زور الانتخابات وكسّبه. . فإحنا نقول إننا لازم ندافع عن الديمقراطية ولازم نبعت من عندنا قضاة مصريين عشان سلامة العملية الديمقراطية. .

إنت عارف لو عملنا كده. . ح نخليهم يفهموا همه بيعملوا إيه فى الناس. . وح نخرّج النار اللى فى صدورنا دى. . زى بالظبط لما يبقى عندك كارثة ومالهاش حل فتبعبع مع أى واحد، تلاقى نفسك هديت. . والكارثة فاضلة هى هى.

وممكن برضه، نرفع قضية على أمريكا إنها بتدعم الإرهاب الدولى وبتقف مع الدول اللى مش ديمقراطية ونجيب أدلة. وحضرتك عارف سهل قوى نجيب أدلة بالذات فى الموضوع ده. وبعدين لما تعمل حركة زى دى. . تبقى أنت مع الديمقراطية وضد الإرهاب وتلاقى شوية بلاد وقفت معاك ضد أمريكا.

وممكن كمان نطالب بفرض عقوبات اقتصادية ضد أمريكا لو مالتزمتش بالكلام ده. . يعنى ناخد الكلام اللى رايس بتقوله كل يوم فى وش كل دول العالم الغلبان ونقولوا ليهم هو هو فى وشهم.

وأهم حاجة إننا كلنا نلغى كلمة الأمريكان، ونقول أبيض بروتستانتى أيرلندى من أمريكا، أسود مسلم من أمريكا، أسبانى من أمريكا، أبيض كاثوليكى من أمريكا، أسود بروتستانتى من أمريكا، زى بالظبط ما هما بيقولوا الأيام دى مات ستة شيعة من العراق واتنين سنة من العراق وولاد الكلب بتوع الجرايد بتوعنا بيكرروا نفس الكلام، وطبعا تلاقيهم بيقولوا قبطى من مصر ومسلم من مصر، وطبعا لازم نطالب بعلو صوتنا إننا ندافع عن حقوق السود فى أمريكا، ونرفع قضايا لو واحد أبيض إسكتلندى من أمريكا قتل واحد أفريقى أسود من أمريكا، طبعا لازم نقلب الدنيا على الأقل ده أفريقى زيّنا، يعنى العلاقة بيننا وبينه أكبر بكتير من علاقة أبيض طليانى بحسنة فى خده من أمريكا بواحد

قبطى من مصر . يعنى حماية حقوق الأقلية السوداء هناك ده دورنا ولازم نتدخل فى كل صغيرة وكبيرة .

أنا عارف إن أنا عمال أزيد وأعيد مستنى إنك ترد علىّ وأنت ساكت مابتردش .

أنا : والله بافكر فى كلامك .

السائق : أصل أنا مشغل الراديو طول النهار وكل يوم عمّال يتسَمّ بدنى بكلام الأمريكان . . حاجة تخللى الواحد يخرج عن شعوره . . الكلام ده خطير جدا لأن الناس ح تنفجر قريب ، إحنا بنأكلكم . . إحنا بنشخخكم ، اعملوا كده . . ماتعملوش كده . . ح نفرقع قريب خلاص . . فجتلى الفكرة دى . . إن إحنا نعمل فيهم زى ماهمه بيعملوا فينا . . واللى بيته من قزاز ما يحدفش الناس بالطوب . . ودول بيتهم من قزاز مشرّخ ضارب فيه السرطان .

أنا : طب ما تبعت الاقتراح ده .

السائق : يا عم أنا ببيع بس . . طق حنك يعنى . . همّا مستعدين إن الأمريكان يعملوا فينا أى حاجة . .

هو الاقتراح اللى ممكن يعجبهم إن الأمريكان يحطوا كاميرا فى كل بيت مصرى عشان يراقبوا الانفجار السكانى .

* * *

(١٤)

كان السائق هذه المرة نوبيا ، من النادر جدا أن تصادف سائقا نوبيا فى القاهرة . . أمر فى منتهى الغرابة . . لماذا لا يعمل النوبيون سائقى تاكسى . . خاصة أنهم يعملون سائقين فى شركات أو لدى أفراد أو فى سفارات وهيئات دولية . . لا أعرف السبب ولكن الأمر يدعو للتأمل . .

كان نوبيا شابًا . . علمت منه أنه جاء حديثًا إلى القاهرة ويحاول الاستقرار بها ، وظللت أشرح له طبوغرافية القاهرة ، أيوه يمين من هنا على شارع شريف ، تعرف شريف ده ، ده كان جد الملكة نازلى ، وبعد كده يمين فى يمين على صبرى أبو علم ، صبرى باشا بقه كان وزير عدل ، أيام ما كانوا بيقولوا إمشى عدل يحتار عدوك فيك ، على طول على ميدان سليمان باشا ، التمثال تمثال طلعت حرب ، بس لسه وبعد خمسين سنة بنقول على الميدان والشارع سليمان باشا ، اللى هو سليمان الفرنساوى جه مصر وأسس الجيش المصرى الحديث مع محمد على وابنه إبراهيم ، هنا فى القاهرة الدولة تقعد تغير فى

أسماء الشوارع والناس ما تعرفش، تعدى سنة ولا عشرة ولا خمسين، والناس على قديمه، الشارع ده الإنتكخانة، وده شامبليون، كل دول أساميهم إتغيرت، لكن الحكومة فى وادى وإحنا فى وادى، والله ما أعرف ولا حد يعرف أساميهم الجديدة اللى بقالها بيجى خمسين سنة. بس سيبك إنت، الأسوانلية دول أحسن ناس.

السائق: ربنا يخليك.. ده من ذوقك يا أستاذ.

أنا: وإنت منين من أسوان؟

السائق: يعنى كنت بين أسوان نفسها وأبو سمبل.

أنا: وكنت بتشتغل إيه هناك ؟

السائق: يعنى كنت بلطش فى كل حاجة.. وبعد كده اشتغلت شوية فى توشكى.

أنا: والله!!.. ده المشروع القومى بتاع الأيام دى.

السائق: لا. ولا قومى ولا حاجة.. ده مشروع مات خلاص.

أنا: مات إزاى؟

السائق: إحنا كان عندنا أمل كبير قوى فيه.. وحسينا إن الدنيا أخيراً ح تبتسم لنا ولكن للأسف خلص خالص.. وأنا إيه اللى جابنى على مصر مفيش حاجة تتعمل هناك.. خلاص.

أنا: لو اللى بتقوله ده صحيح تبقى كارثة.

السائق: اللى بقولهولك ده صح مية فى المية.. الموضوع بالنسبة لنا كناس ساكنة هناك بخ، يعنى ببساطة شغل لينا مفيش.

بس كارثة ليه كف الله الشر؟ ما الدنيا سواقى قلابة.. مافيش كارثة ولا حاجة.

أنا: لأ مصيبة طبعًا.. ده مصر صرفت فى المشروع ده مليارات.

السائق: مليارات.. طب ما كانوا قسموا الفلوس دى على الناس.. إحنا مش سبعين مليون.. يعنى نيجى كده حوالى عشرة مليون عيلة كانوا إدوا لكل عيلة ألف جنيه.. كنا حنقعد ندعى للحكومة بيهم لغاية ماتموت، وإنت مش واخد بالك إن حتى فى الجرايد مابقاش فيه كلام خالص على الموضوع ده.. بعد ما كانت أخبار توشكى نازلة عليك من أى حنفية تفتحها.. دلوقتى تفتح الدُش حتى ما تلاقيش ولا نقطة مية واحدة عن توشكى.

أنا: وإنت بقى لك قد إيه فى القاهرة ؟

السائق: بقى لى ٣ شهور.. إحنا جينا.. ٨ شباب مع بعض أجرنا أوضة فى بولاق الدكرور بتمانين جنيه، كل واحد عشرة.. وأنا اتعرفت على القهوة على صاحب العربية دى.. وأنا طول عمرى بأسوق وكنت عامل رخصة مهنية للزمن.. عملت شوية

إجراءات وثبت إقامتى هنا فى مصر . . وواخد منه العربية دى وردية واحدة فى اليوم . .

أنا : وواخد الوردية بكام؟

السائق : بستين جنيه . . العربية كويسة زى ما إنت شايف . . وهو بيجربنى ، بس إن شاء الله خير . .

أنا : وناوى تكمل فى مصر؟

السائق : وده سؤال برضه وأنا إيه اللى يرجعنى هناك تانى؟

* * *

(١٥)

كنت واقفا أمام كلية رمسيس الجديدة فى شارع أحمد لطفى السيد حيث مدرسة أولادى . . وكان الشارع مزدحما . . وكان هناك عدد كبير من أتوبيسات النقل العام تضخ أطنانا من العادم فى وجهى وكدت أختنق من حجم التلوث الذى كان يحيط بى ، وتساءلت عما تفعله معشوقتى القاهرة برئة أبنائى ، ووجدت تاكسى يقترب منى ويكاد يتوقف فرحة بوجود زبون . . دخلت دون أن أحدد له وجهتى كما جرت العادة . . ووجدته يدخن سيجارة وينفث فى وجهى دخانها .

لم أتحمل منظر هذا الأفعوان الذى يتراقص عبر الهواء متجها نحو نخاشيشى ، وأرسلت رئتى إلى عقلى إنذارا شديد اللهجة لينصرف فورا لوقف مشهد الرقص الصامت للدخان ، تفكرت قليلا وأدركت أننى لو طلبت منه بذوق أن يطفئ السيجارة رحمة بصدرى ، لرفض طلبى بتعال ، فقررت تجربة الصوت الخشن ، ربما يتصور فورا أننى ضابط ويتخاذل أمام سطوتى و يرمى بالسيجارة .

أنا: (بصوت جهم) ارمِ السيجارة دى.. مش كفاية الهباب اللى بنشمه..

نظر لى متفحصًا.. ووضع وجهى فى كفة ووجه الضابط فى كفة وبدأ يزن ما فى الكفتين بميزان أحكامه.. ثم ألقى بالسيجارة من النافذة.. وأدركت أنا أن وجهى يمكن أن يكون وجه ضابط.

أنا: (مستمرا فى لعب دور الخشونة) اطلع على العجوزة.

السائق: من عينيا.

كنت أعلم أنى لو فتحت فمى بكلمة فسوف يظهر المستخبى، وسوف يبدأ السائق فى التدخين من جديد فالتزمت الصمت.

السائق: إحنا تحت أمرك يا فندم.. بس تصدق بالله.

أنا: لا إله إلا الله.

السائق: أنا كنت شغال عند واحد مليونير وكان مرتبى ٧٠٠ جنيه فى الشهر ده غير الهدايا والهدوم والعيدية والذى منه.. وسبت كل الهنا ده علشان كان ممنوع أدخن.. باشتغل سواق تاكسى طول النهار وطالع عين عينى علشان أبقى حر وأدخن براحتى بس علشان خاطر سعادتك رميت السيجارة...

دى مارلبورو والله.

أنا: تعيش.

السائق: أصل أنا سعادتك شربت السجاير على كبَر، يعنى وأنا فى مرحلة ثانوى كده، وبعدَها دخلت الجيش من ٧٣ لـ ٧٦ ساعتها كانوا بيوزعوا علينا السجائر ببلاش، كل عسكرى له علبة فى اليوم، الدخان ده كان منحة من القذافى.. من ليبيا يعنى، للمقاتلين المصريين، أنا قبل الجيش ما كنتش بدخن كتير، طيارى يعنى، أهلى وأنا فى ثانوى ما كانوش يعرفوا إن أنا بدخن، وبعد ما خرجت من الجيش كانت العلبة المالبورو بـ ٤٣ قرش ونصف، وكان المصرى ما بين ١٥ و٢٠ قرش ومسكت فى المارلبورو من ساعتها، دلوقتى المالبورو بـ ٧,٥ جنيه والكليوباترا بقت بـ ٢,٥ ج، يعنى خراب بيوت ولكن تقول إيه سعادتك.. مزاج.

....

طب أحكى لسعادتك قصة غريبة قوى.. أنا من أسيوط.. أهلى قالولى كفاية كده ولازم تتجوز..

قلت لهم ماشى.. قالوا لأ تتجوز من البلد.. وخدونى على هناك ورحنا قابلنا بنت قريبتى.. وأنا بقه نظام شغل مصر خدت معايا جاتوه.. حاجات طبعا مابتحصلش هناك.. دخلت عليهم بالجاتوه، هما استغربوا أوى، بس مش عارف إيه اللى حصل.. ما استريحتش للعروسة، ماحصلش بينى وبينها مغناطيس.. اعتذرت بأى شكل.. هما فهموا، راحوا باعتين الجاتوه على بيت عمى، أصل أبويا كان عايش فى مصر من زمن وماعندوش بيت

هناك، وأنا مروّح قابلت بنت خالى فى بيت خالى . . المغناطيس اشتغل وشدنى ليها وشدّها لىّ، ومشى بيننا . . أهلى ما صدقوا مفيش يومين ورحنا قارين الفاتحة . كانت بنت جميلة وبتشتغل مدرسة فى مدرسة ابتدائى هناك .

رجعت أنا مصر وقعدت أفكر . . يا واد لو اتجوزتها حتكتّر مصاريفك وأنا أصلا اللى بأجيبه ما بيقضّيش . . وحاجيب تمن دخانى منين . . وتمن الكيف منين . . لامؤاخذة يا باشا . . إحنا بنلّف مرة واحدة بس فى الأسبوع . .

قعدت أقلب الموضوع فى دماغى ولقيت نفسى لو اتجوزتها حاضطر أبطل تدخين وأبطل كيف . . ما أنا شايف اللى حواليا عاملين إيه . ورحت رايح البلد من ورا أهلى، وفاسخ الخطبة . . ومن ساعتها ماكررتش الحكاية دى . .

أعيش حر، أدخن براحتى، ألف براحتى، ماحدش ليه عندى حاجة .

ماتآخدلك سيجارة يا باشا . . دى مارلبورو . . حتى شوف العلبة أهى .

* * *

(١٦)

كان يبدو على ملامح السائق حزن لا تُرى نهايته، حزن تمدد حتى ابتلعه، وكأن هموم الدنيا قد تجمعت وتكتلت وشكلت فى النهاية كرة ثقيلة هبطت إلى روح هذا المسكين . . يكفى مجرد النظر إليه للتأكد من أن هناك كارثة قد حلت به .

سألته عن سبب حزنه الدفين فأجاب :

السائق : والله ما أنا عارف أعمل إيه ولا أتصرف إزاى . . مخى عمال يودى ويجيب ومش عارف أتخذ قرار . . أنا حاتجن . . حاسس إن مخى حينفجر . .

أنا : فيه إيه بس ؟

السائق : الحكاية إن عندى دورة مدارس . . وواخد ست عيال بس والعيل بيدفع ٨٠ جنيه فقط لا غير فى الشهر . . من يومين أبو اتنين معايا ولد وبنت دخل السجن ولا اتقبض عليه مش عارف بالظبط، رحت إمبارح آخد فلوس الشهرية، أمهم قالت لى على اللى حصل وطلبت منى استنى لما يخرج بالسلامة .

دورات المدارس عشان تبقى جاية تمنها بناخد سبعة ولا تمانية وأنا معايا ستة . . وفى نفس الوقت الولد والبنت حيعملوا إيه؟ أمهم منقبة وما بتخرجش من البيت ، مراتى بتقول لى ده شغل والشغل شغل ، قول لها يا تدفع يا مش ح توصل العيال ، والولية أمهم حلفت لى على المصحف إن ماعندهاش فلوس تاكل وإن الصبر مفتاح الفرج وقدم السبت تلاقى الحد .

مش عارف أتصرف . . ضميرى بيقول لى لازم أوصل العيال وفى نفس الوقت أنا غلبان غلب ، محتاج حد يرمى لى إن شا الله عضمة . . الدورة حتخسَّر معايا مية المية . . إنت إيه رأيك يا باشمهندس؟

أنا : أنا صعب جدا يبقى عندى رأى فى الموضوع ده . . اللى إيده فى المية مش زيى اللى إيده فى النار . .

السائق : لا بأمانة لو كنت مكانى كنت عملت إيه ؟

أنا : أنا رأيى اعمل الخير وارميه البحر . . ووصَّل العيال .

السائق : أبويا الله يرحمه كان دايما يقول اعمل خير حيرجع لك خير . . عامل زى الصوت وصدى الصوت لو ماطلعتش صوت عالى من قلبك مش حتسمع صداه . . وكمان الخير لو ماعملتش خير من قلبك للناس عمر ما حيرجعلك خير . .

الله يرحمك يا أبويا .

بس أبويا كان عايش فى زمن تانى . .

زمن كان بيروَّح فيه من الشغل الساعة تلاتة بعد الضهر ويفضل قاعد معانا . .

أنا بشوف عيالى من الجمعة للجمعة ، ده إذا شفتهم .

طب لو وصلت العيال الشهر ده وأبوهم ماطلعش ، ح ستنى قد إيه؟ ما هو الخير برضه ما ينفعش يبقى على طول . . دى مراتى ياباشمهندس دبَّت معايا خناقة للسما لما قلت لها إمبارح . . أوصلهم وخلاص . . وكمان بصراحة أنا بحب قوى البت أمينة . . عندها خمس سنين وشبه بنت أختى أسماء بالظبط . . بت جميلة ودمها خفيف وهادية شفت عيلة شقية وهادية فى نفس الوقت؟ آه ، هى دى بقى أمينة . . والله ما أنا عارف أعمل إيه؟

عند نزولى من السيارة طلبت منه أن يتخذ أى قرار يشاء ويلتزم به وألا يفكر فيه بعد ذلك .

أخذ منى الأجرة . . ولم ينظر حتى إليها . . ولم تكن حالته أفضل كثيرا منها لحظة دخولى .

* * *

(١٧)

أهرامات الجيزة هى الأثر الوحيد الباقى من عجائب الدنيا السبع . . نموذج للروعة والكمال، عجيبة وغريبة من الغرائب .

وهذا السائق فؤاد بطوله الشاهق وعوده الأرفع من عود القصب هو أحد عجائب السائقين السبع . . سائق تاكسى ومتخصص فى البورصة ومضارب عتيد ونجم النجوم ومحور اهتمام أقربائه وأصدقائه؛ لأنه جعل من بعضهم أغنياء فى أيام، ومراقب بعينى الصقر ـ على حد قوله ـ لأى تحرك فى أى سهم . . عالم البورصة وحركة الأسهم هى عالمه الأول ثم يأتى عالمه الثانى التاكسى .

فؤاد: البورصة مش مقامرة إنما مغامرة يعنى فرق نقطة أو فرق حرف واحد . . وإنت عارف لو دخل فى الدم مش ممكن يطلع تانى . . أصعب بكتير من تبطيل السجاير .

أنا: طب ما تتفرغ للموضوع . . ده صاحب بالين كدّاب .

فؤاد: أنا لى بال واحد كله فى البورصة إنما السواقة مش

محتاجة بال محتاجة خبرة وأنا خبير وبعدين السواقة فى دمى برضه ودى شغلتى الأصلية اللى باكل منها عيش . . والعربية دى عربيتى مش مأجرها، بس فلوس البورصة دى عاملة زى الحلو . . السواقة بتجيب فلوس الأكل . . لو ماعندكش فلوس تجيب الحلو . . إن شا الله ما الواحد أكل حلو . . المهم إنه ياكل أصلا، ولو معاك، كُل حلو . . فلوس البورصة مش مضمونة ممكن تطلعك فجأة لفوق وبعدين تخفس بيك الأرض فجأة . .

أنا مثلا بألعب بفلوس حوالى عشرين واحد من أهلى وأصحابى . . واخد من كل واحد منهم مبلغ من زمان وبعد كده بتقابل على القهوة . . وأقعد أحكى لهم أنا حاعمل إيه . . وبعدين فيه ثقة . . مدينِّى فلوس من غير كمبيالات ولا حاجة . . أهم حاجة الثقة وأنا الحساب فى شركة السمسرة باسمى لوحدى . .

أنا: يعنى إيه حسابك فى شركة السمسرة أنا أصلا ماليش فى اللعبة دى خالص .

فؤاد: بص يا سيدى ـ باختصار ـ إنت لازم تروح الأول تفتح حساب باسمك . اسمك بيتكوِّد . . اسمها كده يتكوِّد يعنى بتسجل فى شركة مصر للمقاصة . . وبعدين تشوف عايز تشترى إيه وتبيع إيه، وتبلغ الديلر Dealer بتاعك . . أنا باروح قدام شاشة البورصة فى شقة تبع البورصة فى شارع البورصة بوسط البلد . .

وأشوف الحركة عاملة إزاى وأشترى وأبيع ، وبالليل بدخل على إنترنت كافيه فى مواقع بتديك الأسعار بس متأخرة ربع ساعة زى أراب فايننس دوت كوم . . تدخل كود الشركة اللى عايز تعرف سعرها وتعيش حياتك .

أنا : ياه ده إنت متخصص بجد .

فؤاد : اسأل علىّ . . ده كل الناس بتيجى تسألنى أشترى إيه وأبيع إيه .

أنا : وبتكسبهم ؟

فؤاد : والله من كام يوم خربت بيتهم وبيتى ، يوم التلات اللى فات . . يوم ما يتنسيش ، كان ١٤ مارس . . أنا متعود إن أنا باسوق الصبح بدرى وعلى نص النهار بروح أشوف إيه الأخبار . . لقيت لك البورصة بتنهار . . وأنا كنت شارى للشلة بتاعتى فى شركتين . . النساجون الشرقيون . . وحديد عز . . ولقيت السهم عمال يقع . . النساجون كنت أنا شاريه بتلاتة وتمانين جنيه ، لقيته عمال يقع قدامى لغاية ما وصل لواحد وستين جنيه . . أنا قلت حيكمل وقيع ولقيت لك حديد عز اللى أنا كنت مشتريه بتسعة وسبعين جنيه وقع لخمسة وخمسين جنيه . . قلت خراب بيوت مستعجل وأكيد البورصة وقعت والأسعار ح تكمل فى النازل . .

قلت أخرج متعور بدل ما اتشخرم . . بعت بخسارة حوالى

٣٠٪ . . أنا كنت يوميها بالعب فى حوالى تلاتين ألف جنيه . . خسرت حوالى تسعة آلاف جنيه فى ساعتين .

ولقيت ركبى بترعش ومش عارف أصلب طولى . . قعدت على القهوة وأنا حاسس إنى ح موت . . و بعدها رحت نمت . . صحيت من النوم لقيت لك الأسعار طلعت تانى على ما كانت عليه . . بصراحة ضحكت وسقفت على المعلم اللى لعبها صح . . الديناصورات ديناصورات والدّبان دبّان . . وأنا دبّان وبزن علشان أعيش ولكن عرفت يومها إن أنا بزن على خراب عشّى .

لما الأسعار وقعت . . كلنا بعنا . . فيه حد اشترى . . تقول لى مين اللى اشترى؟ أقولك طبعا الناس اللى عارفين إن الأسعار مش حتقع تانى وأنها ح تطلع . . منين جابوا المعلومات إنهم يشتروا . . دول بقى الحيتان اللى البلد واقفة وراهم . . شوف حضرتك أما السهم يقع حوالى عشرين جنيه وإنت عندك المعلومة . . تروح داخل مشترى مليون سهم ـ خللى بالك إن كل شركة من دول معدية الخمسين مليون سهم ـ وآخر النهار السهم رجع تانى لسعره رحت بايع . . كسبت عشرين مليون جنيه فى تلات ساعات . . شغل كبير . . فى يوم واحد خسّروا الدّبان اللى هربوا من المدبحة . . وكسّبوا الكام حوت الكبير قوى . .

وهو حضرتك بتكتب إيه من الصبح ؟

أنا : بكتب الأرقام اللى إنت عمّال تقولها لى . . هريتنى أرقام .

فؤاد : إيه عايز تلعب إنت كمان؟ هات فلوسك وأنا أدخلك في المجموعة بتاعتي .

أنا : أنا لا بتاع مقامرة ولا بتاع مغامرة . . وبيني وبينك أنا رأيي إنها مقامرة ومغامرة . . ورأيي إنك تقدم أنت كمان استقالتك من الحكاية دي طالما الكبار واكلينها .

فؤاد : ما هي دي سنة الحياة علشان الكبار يكبروا لازم إحنا مانبطلش زن . . أمّال هما حيكبروا إزاي ؟

* * *

(١٨)

كنت مدعواً أنا وولديّ التوأم (بهاء وبدر) إلى الغذاء عند صديقتنا سحر كنا نحن الثلاثة في منتهى البهجة والانتشاء ، أنا لأن سحر طباخة ماحصلتش ، وبهاء وبدر لشوقهم للقاء أبنائها . وركبنا تاكسي وانطلقنا .

تفحصني السائق مليًا ثم نظر لولديّ الجالسين في الخلف ، فتفحصته أنا الآخر . . كان رجلا ضخما . . جذع شجرة جميز جالس بجانبي ، رأسه يلامس سقف السيارة ، والمقود بين يديه لعبة أطفال صغيرة . . أما وجهه فكأنه قُدَّ من صخر .

السائق : ولاد سعادتك طبعًا؟

أنا : أيوه ولادي .

السائق : ربّنا يخللي . . نعمة من عند ربّنا . .

أنا : ربنا يخليك .

السائق : الله يحفظهم لك .

أنا : الله يحفظك .

السائق: وعندهم كام سنة ؟

أنا: حيتموا عشرة بعد كام شهر.

السائق: ربنا يديهم طولة العمر.

لم أرد لأننى كنت قد مللت هذه الأسطوانة المشروخة التى كان يمكن ألا تنتهى.. ولكن بعد فترة صمت قصيرة واصل السائق.

السائق: أنا برضه مخلّف ولد.

أنا: ربنا يبارك لك فيه.

السائق: الحمد لله.. الحمد لله.. كان نعمة من عند ربنا.. أنا أصلى بعد ما إتجوزت.. اكتشفنا إن فيه مشكلة فى الخلفة.. قعدنا نجرى هنا وهنا لغاية ما ربنا كرمنا بعد سبع سنين وخلّفنا حسين، سميته على اسم سيدنا الحسين عشان يمشى على خُطاه.

ولكن آه (يطلق السائق آهة مشروخة من القلب) بعد ما تم أربع سنين.. اكتشفنا إن عنده سرطان.. وهو راقد دلوقتى فى معهد الأورام، سعادتك ماتتخيّلش حجم المصاريف اللى اتصرفت عليه.. مدبحة عن حق.. جريت فى كل ناحية عشان أجيب فلوس، شحت من المسجد وكتر خيرهم إدولى فلوس ولكن ماقضتش، ولاد الحلال قالوا لى روح الكنيسة.. قلت لهم بس أنا مسلم.. قالوا لى روح برضه.. رحت وإديتهم التقارير الطبية.. وراحوا كتر خيرهم مدين لى فلوس برضه.. عمّال أشحت من

كل اللى حواليا بس مفيش فايدة.. الصرف على العلاج أكتر.. أمه ماستحملتش.. جالها القلب، وهى قاعدة فى معهد القلب برضه.

أنا: إيه ده.. صحيح المؤمن منصاب.

السائق: الحمد لله على كل شىء.. ربنا يخلى لك ولادك، ربنا يحفظهم لك.

أنا: يا سيدى متشكرين وحالة ابنك ومراتك عاملة إيه دلوقتى؟

السائق: ربنا يتولانا جميعا.. أنا (يطلق آهة من القلب) لما بدخل عليه فى المعهد.. وألاقيه بيزقطط ويصرّخ ويقول أبويا جه.. أبويا جه.. قلبى والله بينخلع من ضلوعى.. ولما أحضنه وأخده فى صدرى بأقول يا رب يكتب له النجاة.. (قال هذه الجملة بنبرة باكية).. وأمه مش عارف أعمل لها إيه.. لازم تعمل عملية قلب.. ياللا الحمد لله على كل شىء.

ثم ينظر لأبنائى.

السائق: ربنا يحفظهم لك.

ثم ينظر لى نظرة حنان وتوسل.

ورغم اعتيادى على هذا النوع من السائقين الذين يعملون جاهدين على استدرار العطف كى تعطيهم مزيدا من المال لكن هذا الرجل أثر فىّ تأثيرا كبيرا رغم يقينى أنه على الأغلب كاذب وأن

تلك القصة ملفقة تماما من أولها لآخرها للحصول على نفحة نقدية سخية فى نهاية المشوار، ومع ذلك فقد تأثرت . . لا أعلم لماذا تأثرت؟ محتمل نتيجة أدائه الرائع أو بسبب حجمه المقارب لشجرة الجميز، ومحتمل أن هاجسًا داخليا جعلنى أقول إن هناك احتمالا ولو قليلا أن يكون صادقا . وعلى العموم نفحته فى النهاية مبلغا من المال لمعهد السرطان ومعهد القلب وأى معهد آخر فى مخيِّلته .

وعندما حركت أرنبة أنفى وأنا جالس فى منزل سحر، استنشقت الدخان المحمل بروائح اللحم والبصل والقرفة حتى نفذت إلى مسامى، شعرت بحالة سلام وحكيت لسحر قصتى مع السائق . . فلم تندهش :

– دى حكاية متكررة جدا . . دى حصلت لى ييجى ميت مرة ما إحنا بقينا شعب شحاتين . . إنت ما سمعتش دى .

– لأ .

– اللى ما تسجنش فى فترة عبد الناصر مش حيتسجن أبدًا، واللى ماتْغناش فى فترة السادات مش حيتغنى أبدًا، واللى ما شحتش فى فترة مبارك مش حيشحت أبدًا . .

قلت لها : اعتبرينى شحات . . وهاتى أى حاجة آكلها . واقع من الجوع!

* * *

(١٩)

شارع الجيزة وكأنه يوم الحشر، التاكسى لا يتحرك، التلوث يتمدد مع الملل ويجعل الزمن فى حالة ثبات خانق، كلية الطب البيطرى على يسارى وحديقة الحيوان على يمينى وطابور سيارات بلا نهاية من أمامى ومن خلفى، وقدَّرت أننى سوف أصل إلى مدينة السينما فى شارع الهرم بعد قرنين من الزمان .

لم أتبادل مع السائق أى حوار فالصمت كان ضرورة حتمية لاستكمال دورة التلوث والملل . ولكن السائق قرر فى النهاية كسر حاجز الصمت .

السائق : فيه واحد لسه نازل من شوية . . قال لى إن حادثة خان الخليلى مش عاملها الإسلاميين ولا حاجة . . وإن دى الحكومة اللى عاملاها عشان الناس تتعاطف معاها ضد الإسلاميين قبل الانتخابات الرئاسية . ولمعلوماتك فيه أكتر من واحد قالوا لى الحكاية دى . إنت إيه رأيك يا أستاذ فى الكلام ده؟

أنا : رأيى إن ده كلام فارغ، وقلب للحقايق وقلة أدب . .

الإسلاميين آخر تلاتين سنة عملوا أكتر من مرة نفس العمليات الإرهابية دى، اللى بتضر المجتمع وبتضرهم ومستمرين فيها ماتفهمش ليه وماتفهمش مين اللى وراها ومين اللى بيمولها؟ وإنت بقى إيه رأيك ؟

السائق: الحكومة ضعيفة.. ماتعرفش تعمل الحاجات دى.. لو كانوا بيخططوا ويتكتكوا بالشكل ده ماكانش حالتنا بقت كده.. عشان تعمل عمليات سياسية من النوع ده لازم يبقى عندك جرأة وشجاعة ويبقى فيه تخطيط سليم.. بس إحنا غلابة ما نعرفش نعملها عارف لو الحكومة الإسرائيلية، كان ممكن تفكر، لكن إحنا لا، مستحيل.

أنا: يعنى تنفيذ عمليات قذرة ضد المواطنين فى رأيك قوة.. إيه اللى إنت بتقوله ده؟

السائق: السياسة كده طول عمرها وسخة.. ما إحنا كلنا عارفين إن الأمريكان هما اللى ضربوا البرج بتاعهم ولبّسوها فى الإسلاميين، السياسة شعارها اللى تكسب به العب به، وإحنا داخلين على انتخابات يعنى كل اللعب مسموح به. والحكومة لازم تخلى صورة الإسلاميين زى الزفت علشان الناس تقول إنهم بيخربوا الاقتصاد أكتر ما هو خربان..

أنا: إنت بتقول إيه؟ مفيش أخلاق.. مفيش قانون.. مفيش دستور.. إنت فاكر إن إحنا عايشين فى غابة؟

السائق: ليه وإنت فاكرنا عايشين فين، فى مدينة!! ده الغابة رحمة عن اللى إحنا فيه، إنت عارف إحنا عايشين فين ؟

أنا: فين ؟

السائق: فى الجحيم.

* * *

(٢٠)

انتهت الانتخابات التشريعية بحلوها ومرها وكوارثها التقليدية فى ممارسة العنف . . وتمخضت عن اختفاء كل الأحزاب المصرية من اليسار إلى اليمين وتلخصت نتائجها فى ظهور كفتين هما : الحكومة والإخوان المسلمين والذين يكتب عنهم فى كل الصحف جماعة الإخوان المحظورة .

قال لى السائق :

- ما هى لازم تفضل محظورة عشان يعرفوا يلموهم فى أى وقت لو حاولوا يزودوها شوية . . لازم يفضلوا وراء الخط المرسوم ، لو قلّوا عقلهم وقرّبوا من الخط حيتلموا . . أنا أحكيلك قصة ظريفة قوى حصلت فى تونس ، أصل أنا مراتى تونسية . . فى يوم من الأيام جه "بن على" . . الرئيس التونسى . . قال لك الانتخابات بقت حرة وديمقراطية وخلاّ كل الفيران تطلع من جحورها وراح عامل الانتخابات ومفيش كام يوم راح قابض على كل الإسلاميين وعلى كل

اللى راحوا انتخبوا الإسلاميين . . رماهم فى جب ماطلعوش منه من ساعتها . شايف الحلاوة ، فى انتخابات حرة واحدة عرِف يخلّص الليلة .

هنا أظن إن الإخوان مش ناويين يعدوا الخط الأحمر وبيلعبوا اللعبة المرسومة صح .

بس بصراحة هما رغم إنهم مش نازلين فى كل الدواير إلا إنهم طلّعوا عين الحزب الوطنى . . اضطرت الحكومة تزوّر فى كام دايرة زى فى الدقى مع آمال عثمان ، كان قدّامها حازم صلاح أبو إسماعيل ، كان كسبان وفى الآخر طرمخوها وكسّبوا آمال عثمان ، وزى اللى حصل فى مدينة نصر مع السّلاب وفى كام دايرة كمان . .

أنا أصلا من الفيوم . . بلد يوسف والى . . هناك الحزب الوطنى ماعرفش يعمل حاجة . . الإخوان اكتسحوه اكتساح . .

بس بصراحة الانتخابات عندنا فيه معلم طبخها صح والكل فضل فى الخطوط المرسومة له ، وبقى شكلنا مية مية بلد ديمقراطية عن حق . . بس تعرف الحقيقة إيه ؟

أنا : إيه .

السائق : إن مفيش ديمقراطية فى أى بلد فى العالم . . طبعا عندنا مفيش داعى نتكلم ، بس كمان بره . فى أمريكا الناس بتروح

تنتخب بين حزبين وهما فى الحقيقة نفس الحاجة . . زى ما هنا تروح تنتخب مبارك أو مبارك هما نفس الحزب باسمين، وفى أوروبا نفس الحكاية كله شبه بعضه . . الفرق بيننا وبينهم مش فى الديمقراطية . . لأن دى وهْم ومش موجود غير فى الكتب، ولكن الفرق فى القانون، هما عندهم قانون بيتنفذ وإحنا ماعندناش . . هو ده الفرق .

ماينفعش هناك يقولوا جماعة الإخوان المحظورة ويبقوا هما الوحيدين اللى واقفين قدام الحزب الوطنى . . هناك محظورة يعنى محظورة إنما هنا محظورة وسايبينها تشتغل . . على فكرة ده مش بس الإخوان ده أى واحد فينا ممكن يتقبض عليه بالقانون . . أى واحد .

يعنى مثلا لو وقّفونى دلوقتى حيقولك الرخص . . الرخص سليمة . . حيقولك الطفاية حطلعها له حيقولك بعيدة عنك . . أو فاضية . . أو قديمة طبعا ما تفهمش عرف إزاى إنها فاضية ولا قديمة . . ولو عديت من الطفاية حيقولك معلقات . . طبعا كل العربيات حاطة حاجات على المراية وده ممنوع . . لو عديت من دى، حيقولك أمن ومتانة وأكيد أى عربية فى مصر مخبوطة خبطة صغيرة فى حتة .

يعنى باختصار عنده مليون طريقة إنه يقبض عليك ولو كله سليم وشكلك ما عجبوش عنده التحرى وفى الآخر

عنده قانون الطوارئ اللى بقاله ربع قرن . والله لو دخلوا أى بيت فى بر مصر يقدروا يطلّعوا ممنوعات للرُكَب ما القانون عندنا أستكه واسع .

يعنى إحنا كلنا محظورين . . وأى واحد فى البلد دى زيه زى الإخوان ممكن يتلم فى أى وقت . . ربنا يستر علينا .

* * *

(٢١)

سمك

السائق : أنا، وربّنا يغفر لى، مابصلّيش وحتى الجامع ما بَدخُلوش، ماعنديش وقت.. باشتغل طول النهار.. وحتى الصيام يوم كده ويومين كده ما بعرفش أشتغل من غير دخان؛ بس نفسى بجد الإخوان المسلمين يمسكوا الحكم.. ليه لأ.. باين كل الناس عايزاهم بعد الانتخابات التشريعية..

أنا: بس لو مسكوا الحكم وعرفوا إنك مابتصلّيش حيعلقوك من رجليك.

السائق: لأ ما أنا حابقى أصلّى فى الجامع قدّام كل الناس.

أنا : وأنت عايزهم يمسكوا الحكم ليه؟

السائق: ما إحنا جربنا كل حاجة.. جربنا الملك ومانفعش وبعدين جربنا الاشتراكية مع عبد الناصر، وفى عز الاشتراكية كان برضه عندنا باشوات بتوع الجيش وبتوع المخابرات، وبعدين جربنا الوسط، وبعدين جربنا الرأسمالية، بس فيها تموين

وقطاع عام وديكتاتورية وقانون طوارئ وبقينا أمريكان وشوية شوية حنبقى إسرائيليين وبرضه مش نافع طب ما نجرب الإخوان واحتمال ينفعوا.. مين يعرف؟

أنا: يعنى مجرد تجربة.. ممكن تجرب تلبس بنطلون واسع.. قميص ضيق.. بس ما ينفعش تجرب فى مستقبل بلد.

لبن

السائق: قالوا للأعور ح نضربك على عينك.. وبعدين الأمريكان الواحد مش فاهم لهم حاجة.. بيساعدوا مبارك وبيساعدوا الإخوان وبيساعدوا المسيحيين اللى عاملين مشاكل برة وبيدفعوا فلوس للسعودية اللى بتدفعها للإسلاميين اللى بيعملوا عمليات إرهابية بيها ضد قال يعنى أمريكا، لخبطة جامدة تخللى الواحد يتمخْول.. بس أرجع وأقولك لازم نجرب حكاية الإخوان يمسكوا الحكم شوية ونشوف حيعملوا إيه.. وأهو نغير الوشوش. وزى ما إنت عارف الغربال الجديد له شدة، احتمال الغربال ده يشد الاقتصاد بتاعنا شوية..

بمناسبة شدة الاقتصاد سمعت النكتة دى ؟

أنا: لأ

السائق: بيقولك الاقتصاد المصرى عامل زى لباس المومس كل ماترفعه ينزل تانى.

ثم انفجر ضاحكا.

* * *

(٢٢)

كل المصايب اللى حصلت لنا والبلاوى اللى وقعت على دماغنا كوم واللى حصل فى العراق ده كوم تانى.

بيقولك تعرف فلان؟ أيوه.. عاشرته؟ لأ، تبقى ما تعرفوش.. أنا بقه عاشرت العراقيين دول سنين، ما يستاهلوش أبدا اللى بيحصل لهم ده.

كنت عايش فى مدينة الحرية التانية.. فى حى دور نواب الضباط.. كنت شغّال هناك بياع فى محل.. وهناك النظام إن كل محل يبقى فيه أوضة للسكن، ما قولكش على الناس هناك.. أنا أول رمضان عدّى علىّ كنت أنا مع اتنين مصريين قاعدين ومحضّرين الفطار لقيت لك الباب بيخبط فتحت لقيت الجيران باعتين لينا صينية الفطار. قلنا لهم الحمد لله معانا فطارنا.. قالوا لنا زوّادة.. مش عايز أقول لحضرتك على الصينية.. اضطرينا نفتح درفتين الباب علشان تعدّى.. لا يمكن واحد لواحده يشيلها لازم اتنين.. والضرفة التانية كانت معصلجة وفضلوا مستنيين، وألاّ الصينية كانت مش ناقصة

حاجة . . حتى المية الساقعة بالتلج . . وفضلوا يعتولنا الصينية دى التلاتين يوم بتوع رمضان . . كل يوم الأكل أصناف أصناف .

وهناك الصّحاب صحاب بجد . . أنا مرة كنت مسافر على مصر وكان عندى واحد صاحب اسمه كريم شغّال أمن فى المطار . . لقيته معدّى علىّ فى البيت ، هو اللى صحانى ولقيته جايبلى الفطار ومعاه عربية عشان يوصلنى المطار وقعد معايا لغاية ما دخلنى الطيارة . .

وواحد صاحبى تانى كان شغّال فى الاستخبارات العامة . . وكان عنده محل بقالة جنب سكنى . . والله قادلى صوابعه العشرة شمع عشان يساعدنى . . فعلا رجالة وجدعان واللى يقول لك غير كده يبقى كدّاب .

أنا لو علىّ عايز أروح لهم وأحارب معاهم . . أنا حاسس إنى ابن كلب . . كنت معاهم فى الحلوة ودلوقتى بعيد عنهم فى المُرّة . . بس أنا مش ندل . . لكن ما قُدّاميش حاجة ممكن أعملها . . ربنا على المفترى . . له يوم إن شاء الله .

* * *

(٢٣)

من النادر جدا أن يتعرف إنسان على مثل ذلك السائق . .

رجل فى الخمسين من العمر . . متأنق الهندام . . حليق الذقن . . عطر الرائحة . . صوته عميق وهادئ . . كاهن بوذى أو زاهد فى الصحراء أو يمكن أن يكون قديساً فى دير ناء .

كنا نسير بسيارته النظيفة أمام جامعة القاهرة ونتحدث عن المبانى القبيحة التى تم إنشاؤها أمام كلية التجارة وكلية الاقتصاد والعلوم السياسية فإذا به يقول لى . .

السائق : كل حاجة فى الدنيا دى لها جمالها . . يكفى إنك تفتح قلبك عشان تشوف الجمال اللى حوالينا . . لكن لو إنت زى معظم الناس مقفل قلبك ح تشوف النور اللى بيضوى حواليك إزاى؟ إحنا فى مصر فى نعمة كبيرة . . بلد من أجمل وأعظم بلاد العالم وإنت عايش فيها ، ولما تفتح قلبك حتشوف فى مصر حاجات ماحصلتش . . ده يكفى النيل . . النيل ده زى ما بيدينا مية علشان نشرب وناكل ممكن كمان يغسل روحنا ، النظر إليه يطهّر قلبك .

أنا بقالى تلاتين سنة مقسّم اليوم لتلات ورديات وردية بأشتغل على التاكسى ووردية أقعد فيها مع مراتى وعيالى ووردية أقعد أصطاد فى النيل، وأغسل روحى وجسمى وعينى.. وعلى صفحة النيل باقرأ كلمات ربّنا.. بعد الأربع ساعات دول بابقى حاسس إنى شفاف وإن ربنا معايا وماسك إيدى عشان ماخافش غير منه. لو كل واحد فى البلد دى قعد يبص لصفحة المياه ح تبقى حياتنا حاجة تانية خالص.. مش ح يبقى فيه فساد ولا رشوة، لأن الإنسان الطاهر ما يقدرش يعمل حاجة غلط.

أنا كل يوم بأخلص وردية التاكسى وأنا خايف.. خايف على ولادى وخايف من المستقبل وخايف من الدنيا وبعد ما أخلص وردية الصيد بيقى كلى أمل، أمل فى بكرة وثقة إنه كل شىء ح يبقى تمام وإن ربنا مش ممكن ح ينسانا. ده مصر مذكورة فى القرآن وإحنا جند الله.. إزاى بقى ح ينسانا.. مش ممكن.

كان يتحدث معى بصوته العميق الرخيم، صوت يشبه كثيرا صوت كبيرة عائلة «عبد الرسول» فى فيلم المومياء لشادى عبد السلام، صوته يبدو لك أنه لا يصدر عن الشخص المتحدث ولكنه يصدر مباشرة من الله عز وجل.. كلمات بها إيمان عميق نابع من القلب.. إيمان حقيقى بجوهر الحقائق وليس بأشكالها المصطنعة.

سوف أتذكر دائما هذا الرجل الجميل كلما تأملت صفحة النيل.. وسوف أتذكر دائما أن كل شعور بالخوف سوف يلحقه شعور بالأمل فى غد أفضل.

وسوف أتذكر كذلك اسمه الذى سألته عنه قبل مغادرتى السيارة: «شريف شنودة».

* * *

(٢٤)

يختلف كثيرا هذا الشاب من حيث مظهره ونوع حذائه وماركة نظارته الطبية عن الشريحة العظمى من سائقى التاكسى، وسيارته كذلك ماركتها مختلفة عن كل سيارات الأجرة التى ركبتها.. فسيارات الأجرة لا تخرج عامة عن أنواع محددة من السيارات جر خلفى.. أهمها الشاهين واللادا والفيات ١٤٠٠ و ١٥٠٠ والبيجو ٥٠٤، أما السيارات الحديثة التى دخلت السوق بظهور فكرة التمويل البنكى بالقسط لعربيات الأجرة فى منتصف التسعينات فهى السكودا والسوزوكى سويفت التى يطلق عليها سوزوكى زفت والهيونداى..

أما هذه السيارة فمختلفة كسائقها..

أنا: ماركتها إيه العربية دى ؟

السائق: دى تويوتا كريسيدا.

أنا: مش منتشرة أوى.

السائق: هى منتشرة فى الخليج.. أصلها غالية شوية، دى

الفين سى سى ونازلة بالتكييف وسنتر حتى الكاسيت أصلى.. شوف مكتوب عليه إيه.. تويوتا.

أنا: لا.. عربية جميلة.. أهم حاجة فيها إنها واسعة.. وإنت بتشتغل سواق من فترة.

السائق: (بحدة) لأ.. لأ.. أنا مش سواق.. أنا خريج كلية التجارة وباعمل الماجستير دلوقتى.. وباشتغل محاسب فى شركة أدوية، بس بعد الضهر باخد التاكسى علشان أحسِّن دخلى..

أنا: ليه متجوز ولا إيه؟

السائق: إتجوزت بدرى.. الجواز برضه نص الدين.. وخلِّفت برضه بدرى.. إنت عارف المال والبنون زينة الحياة الدنيا، وطبعا بمرتبى مانقدرش نعيش..

أنا: لامؤاخذة فى الكلمة.. بس إنت بتاخد مرتب كام ؟

السائق: أنا باخد ربعمائة وخمسين جنيه فى الشهر، وده مرتب كويس، عندى زملاء لى بياخدوا تلتمائة وخمسين، بس أنا محاسب شاطر.. لكن مستحيل يقضّوا.. عملت شيت إكسيل Excel Sheet بالمصروفات المنزلية واكتشفت إنها معضلة ولا حتى بيل جيتس يقدر يحلها، أنا بدفع إيجار مائة وعشرين جنيه وكهرباء وغاز وبواب حوالى تلاتين جنيه.. يفضل لى تلتمية.. علشان الواحد يعيش بالعافية فى ظل الأسعار بتاعة الأيام دى..

محتاج تلاتين جنيه فى اليوم . . طبعا لىّ ولمراتى وأنا عندى عقبالك إسلام وسها ، طبعا ده شامل الأكل والمواصلات واللبس والأدوية والمصايب اللى بتطلع للواحد كل شهر ماتعرفش منين ، يعنى بقية المرتب بيخلص فى عشرة أيام . . أنا مش عايز أقولك بند اللبن بس بيعمل فى مرتبى إيه؟ طبعا الطفلين لازم يشربوا لبن . . وأمهم بعد الحمل مرتين ، جالها نقص شديد فى الكالسيوم والدكتور قال لها لازم تشرب لبن . . حضرتك مش حتتصور إن أنا بدفع ميت جنيه فى الشهر لبن . . ما الكيلو بقى بتلاتة جنيه وربع . . حضرتك ممكن تقول لى طبعا إن اللبن ده بتاع الأغنياء . . وعندك حق ، بس المدام مش عارف ليه مصممة قوى عليه . . بتقول لى أنا ولادى لازم يشربوا لبن كل يوم ، عندها كله كوم واللبن ده كوم . .

بس والله مش اللبن بس ، كل حاجة بقت نار . . ده كيلو الفول وصل تلاتة جنيه . . ولا الزيت بتاع التموين . . الكيلو بقى بتلاتة جنيه ونص . . مش ح أقول لك على زيت الذرة والحاجات دى . . ده الكيلو الواحد فيه وصل لستة جنيه .

يعنى مستحيل على أى حد فى مصر يكتفى بمرتبه . . ماهى المرتبات كام من تلتمائة لستمائة جنيه مابتعديش كده . . وده مايكفيش . . إيه الحل؟ يا إمّا نسرق أو نرتشى أو نشتغل طول النهار . . أنا بشتغل من تمانية الصبح لأربعة فى الشركة . . وبعدين أطلع آخد التاكسى من الساعة خمسة للساعة واحدة الصبح . .

أصل السكة من الشركة لصاحب التاكسى بتاخد حوالى ساعة مواصلات . . وبروح حوالى الساعة اتنين الصبح . . أتعشى وأنام . .

والحمد لله اللى مخلينى ما أمدش إيدى لحد . . وأهىّ ماشية كويس وكلها كام سنة مرتبى ح يزيد ، وبعد ما آخد الماجستير إن شاء الله مرتبى ح يزيد برضه . . الشباب فى الأول لازم يشقى . . وبعد كده يستريح إن شاء الله . .

كان يتكلم عن أمله فى مستقبل مشرق بصورة يقينية جعلتنى أخاف عليه . . أتمنى أن تحنو عليه يد القدر فهذا الشخص جدير بها .

* * *

(٢٥)

أنا : حنعـمل إيه فى النهـائى؟ حنكسب ولا كـوت ديفـوار حنكسب؟

السائق : والله أنا ماليش فى الكورة. . ولكن حنكسب إن شاء الله .

أنا : ما شفتش الماتشات ولا إيه؟

السائق : البطولة دى مش بتاعتنا، دى بتاعة الأغنياء بس . . مابقاش فيه حاجة لينا خلاص . . فى الماتش اللى فات بتاع قبل النهـائى . . ابنى إتحايل علىّ أجيب له تذكـرة . . مـاهو مـجنون كورة . . حاولت أجيب تذكرة درجة تالتة مستحيل . . وبعدين عرفنا إن فيه سواق بتاع واحد فى اتحاد الكورة بيبعهم فى السوق السوداء . . لدرجة إن طلعت نكتة إن واحد لقى مصباح علاء الدين فطلب من الجنى تذكرة فى ماتش مصر . . رد عليه الجنى وقال له : لا والنبى اطلب طلب أسهل شوية، حاولت أنا أجيب للواد تذكرة سوق سوداء لقيتها بميتين جنيه . . تصور حضرتك تالتة بميتين جنيه والتانية وصلت تلتمائة جنيه، الأولى عدت الخمسمية . .

يعنى أرخص تذكرة بمرتب واحد فى الشهر، ما أنا بقول لسعادتك عاملين بطولة للأغنياء فقط، زى كده ما كانوا بيحطوا على الأفلام للكبار فقط . . بس فى البطولة دى للكبار قوى فقط .

حضرتك شفت المتفرجين فى التليفزيون . . كلهم شكلهم خواجات . . شعرهم أصفر وعينيهم زرق ووشهم أبيض وشكلهم حلو قوى، ولابسين حلو قوى، بس شفت حضرتك واحد فقير فى الملعب يوحّد الله . . مفيش . . اللعيبة همه الوحيدين اللى شكلهم من الغلابة وكان من حقهم دخول الاستاد .

ابنى قعد يعيط لى قلت له أجيب لك ميتين جنيه منين . . ده لازم أبوك يبقى مبارك نفسه عشان يجيب لك تذكرة . . عشان كده تلاقى نفسى مسدودة شوية على البطولة دى .

وأنا عايز أقول لحضرتك حاجة، عمرها ما حصلت قبل كده . . المتفرجين دايما كانوا همه الغلابة . . كانت تالتة وتانية محجوزة لنا . . بس خلاص إحنا من حقنا بس إن إحنا نلحس التراب اللى بيمشوا عليه الأغنياء . . وعلى فكرة دى مش بس البطولة دى . . ده كمان كاس العالم مش حيتذاع إلا بالفلوس . . تدفع . . تتفرج . . إحنا باين علينا ممنوع نشوف أو نتفرج على أى حاجة، الكلام ده ينفع فى بلاد زى السعودية ولا الإمارات . . لكن عندنا هنا ح ندفع منين؟؟

* * *

(٢٦)

٦ أكتوبر.. ٦ أكتوبر.. ٦ أكتوبر.. صرخات كنت أطلقها فى الهواء كى تقنع إحدى سيارات الأجرة بالتوقف ولكن هيهات، لا أمل.. كان لدى موعد فى مدينة الإنتاج الإعلامى فى الساعة العاشرة مساء وكانت سيارتى معطلة.. وتصورت أننى سوف أجد تاكسى بسهولة..

ومن صبر نال العلا.. توقف تاكسى.. وتفحصنى جيدا.. قبل أن يقول لى اتفضل.. تفضلت.

أنا: إيه الحكاية بقى لى ييجى نص ساعة ماحدش عايز يقف لى.

السائق: ولا حد كان حيوقف لك.

أنا: ليه إن شاء الله؟

السائق: بالليل كده وفى حتت مقطوعة وفى ٦ أكتوبر بالذات الأيام دى صعب.

أنا: ليه؟ فيه إيه؟

السائق: حصلت كام حادثة كده..

أنا: يا ساتر، إيه كفى الله الشر.

السائق: مفيش.. زباين ياخدوا تاكسى ويقولوا له ٦ أكتوبر وفى حتة مقطوعة يطلّعوا له مطاوى وياخدوا اللى معاه ويرموه على الطريق ويسرقوا العربية.. وفيه واحد قاوم من كام يوم قطعوه.

أنا: قتلوه؟!

السائق: لا مامتش.. بس خدله ييجى عشرين مطوة فى جسمه كله.. كان بين الحياة والموت.. اتكتب له عمر جديد.. المصيبة العربية كان لسه جايبها وطبعا مش متأمن عليها، خادوها ولاد الهرمة دول.. وحيقطعوها ويبيعوها قطع غيار.

أنا: وإنت عرفت منين، اتنشرت فى الجرايد؟

السائق: لا أنا مابقراش جرايد.. أنا لاقى آكل عشان أشترى جرايد كمان.. لا أنا من إمبابة.. وكنت قاعد على القهوة.. لقيت شوية سواقين وجايبين ورقة مكتوب فيها الكام حادثة دول وبيوزعوها على كل السواقين وإدونى كذا نسخة علشان أوزعها أنا كمان على سواقين أنا عارفهم، عشان كده أنا بصيت عليك كويس قبل ما أركّبك.. أنا ح أوصلك وأروّح على طول.. من يومها وأنا مابحبش أتاخر عن الساعة عشرة.. البلد مابقتش

أمان، الساعة عشرة بالكتير وأروح أقعد مع مراتى وعيالى . . حانزلك وأسوجر العربية وأطلع جرى على إمبابة . . ربنا يسترها معانا .

أرهبتنى القصة، ولكن أعجبتنى قصة تكاتف السائقين وتوزيعهم منشور تحذيرى .

ونزلت مدينة الإنتاج الإعلامى ووجدت نفسى ولأول مرة أتلفت يمينًا ويسارًا .

* * *

(٢٧)

ركبت مى ابنتى التى تبلغ من العمر أربعة عشر ربيعا، تاكسى من العجوزة إلى نادى الجزيرة وهى مسافة قصيرة لا تستغرق دقيقتين . . وكانت هذه أول مرة فى حياتها تقوم بهذه المغامرة، أى أن تذهب للنادى بمفردها . . وقد شجعتها على ذلك، فهى عضو فى فريق ألعاب القوى . . تعدو المسافات القصيرة ١٠٠ متر و٢٠٠ متر و٤×١٠٠ تتابع، وتضطر للذهاب إلى النادى يوميا للتدرب . .

جلسنا سويا فى اليوم السابق وبدأت أتحدث معها حول ضرورة أن تقتحم الحياة وأن التصاقها بنا الدائم مرحلة يجب أن تتلوها مرحلة أخرى تعتمد فيها على نفسها وأن ذلك سوف يعطيها ثقة فى نفسها . . وأنها يجب ألا تخاف من ركوب تاكسى وحدها، فالشعب المصرى هو أطيب شعوب العالم، وعندما يجد السائق فتاة صغيرة سوف يعاملها كأبيها .

وبالفعل ركبت ابنتى التاكسى فى اليوم التالى وحدها، وكان السائق رجلا فى الأربعين من العمر . . وبمجرد صعوده على كوبرى ٦ أكتوبر بادرها بالسؤال .

السائق: وإنتى بتشوفى أفلام الجنس بالفرنساوى ولا بالإنجليزى؟

فكرت مّى فى كيفية الرد ولكنها لم تجد أى إجابة فالتزمت الصمت.

السائق: ماتخافيش منى.. قولى لى بجد إنتى بتشوفى أفلام الجنس بأى لغة؟ يعنى بتحبى تسمعى الآهات بالإنجليزى ولا الفرنساوى؟

ارتعبت الفتاة المسكينة، لا أدرى على وجه اليقين ماذا دار بخلدها فى تلك اللحظات الرهيبة.. وكانت قد وصلت، فألقت بالمال على كنبة السيارة وفرت هاربة.

عندما حكت لى ابنتى ما حدث لها، تذكرت الفيلم الرائع «أحلام» لأكيرا كوروساوا[1]، عندما أغلقت الأم باب المنزل فى وجه طفلها وأعطته خنجرا لمواجهة المجتمع، وقد صور كوروساوا المنظر جميلا وخلابا بالزهور الشديدة البهاء ومخادعا فى الوقت نفسه.

وقد رفع هذا السائق حجاب الوهم من أمام عينى، وأنا أقف الآن فى المطبخ أسن النصل لكى أسلمه لابنتى غدا صباحا.

* * *

---

(١) أكيرا كوروساوا: مخرج يابانى، ٢٣ مارس ١٩١٠ - ٦ سبتمبر ١٩٩٨، يعد من ألمع مخرجى السينما فى القرن العشرين.

(٢٨)

شَغل موضوع تاكسى العاصمة أذهان العديد من السائقين.. ودار العديد من الحوارات حول هذا المشروع الذى تم طرحه منذ حكومة نظيف الأولى ثم تجدد الحوار حوله مع حكومة نظيف الثانية.. ومرت السنون والمشروع لم ير النور بعد، وقد أطلقوا عليه اسم Cairo International Taxi أى تاكسى القاهرة الدولى، ما معنى كلمة دولى هنا؟ ولماذا دولى؟ وهل سيارة التاكسى هى الدولية أم القاهرة وقد تم تدويلها؟ لا يمكن أن تفهم ولو فهمت سوف تتفجر بداخلك طاقات غضب أو شفقة على حسب زاوية الرؤية، وسوف يكون لون التاكسى أصفر مثل تاكسيات نيويورك، ومكتوب عليه Cab باللغة الإنجليزية لإعطائه الصبغة الدولية، واستمر سائقو التاكسى الأبيض والأسود أولاد البطة السوداء فى البحث عن كافة التفاصيل الخاصة بأعداد سيارات الأجرة الصفراء أولاد البطة البيضاء وأسعار البنديرة، وتساءلوا من سيركب هذه التاكسيات؟ وهل سوف يؤثر هذا المشروع عليهم؟

أنا: سمعت إن خلاص حينزلوا تاكسى العاصمة أخيرا الشهر ده وحيقطعوا عليكم.

السائق: بيتكلموا عن الموضوع ده وكأنه مشروع قومى للبلد، خلصت توشكى ودخلوا على تاكسى العاصمة، الحاج نظيف ما بيعرفش يتكلم غير فى الحكاية دى، بقه موضوعه المفضل، واجتماعات مجلس الوزارة، وشاى وقهوة وقازوزة، تعبين نفسهم قوى ومش عارف ليه؟ بيقولوا حينزلوا الأول ١٥٠ عربية وحيزودوهم لغاية ما يبقوا ١٥٠٠ عربية، وفى القاهرة الكبرى.. اللى هى العاصمة برضه، تمانين ألف تاكسى.. حيتشافوا فين دول؟ ده زى ما تحط نقطة سكر فى مية النيل.. والله الحكاية دى فكرتنى بنكتة الرئيس اللبنانى اللى راح يزور الصين، فسأله الرئيس الصينى: ماجبتش معاك ليه الشعب اللبنانى؟

ماكانوش حيظهروا برضه هناك..

أنا فى الأول كنت قلقان وبعدين عدت الشهور والسنين والحكومة مش عارفة كالعادة تعمل حاجة، وبعدين أما عرفت الأعداد والأسعار عرفت إن الموضوع مجرد منظر.. شكل حلو وبس.. زى كل حاجة فى البلد.. نظام اضحك عشان الصورة تطلع حلوة!!

وبعدين تاكسى العاصمة عامل بالظبط زى الليموزين اللى

عملته جيهان السادات، كان للأجانب وبس، واللى يطمن إن الحكومة مش بتفكر غير فى السياح والأغنياء وإحنا بنركّب الشعب الغلبان اللى الحكومة مالهاش دعوة بيه.

إنما اللى يهلّك من الضحك. إن أنا سمعت إن الموضوع عمال يتأجل عشان موضوع اللاسلكى عارف حضرتك.. الموجة يعنى.. المفروض إن العربيات كلها تبقى متصلة ببعض.. الزبون يتكلم بالتليفون، يروحوا شايفين باللاسلكى مين أقرب تاكسى فاضى للعنوان ويروحوا متصلين بالسواق عشان يطلع على العنوان..

جم البوليس سابوا الحكومة تتكلم عنه وكأنه مشروع قومى وسابوا المشروع لغاية ما اتعمل ولغاية ما اشتروا العربيات وقالوا لهم ستوب.. الموجة دى بتاعتنا لوحدنا..

زى بالظبط اللى يسيبك تركن ويفضل يتفرج عليك وبعد ما تنزل من العربية، يقولك لا والله ما ينفعش هنا هاتهالى شوية قدّام..

أهو ده اللى حصل، بعد ما خلصوا المشروع طلّعوالهم وقالوالهم ما ينفعش ده أمن قومى وأمن خالتى.. باعتبار إن قومى ده يبقى جدى..

بينى وبينك أنا اتبسطت.. تعيش الشرطة فى خدمة التاكسيات.. خليهم يوقفوالهم المشروع.

وعامة المشروع ده قدامه حاجة من اتنين وابقى افتكرنى، يا إما حيخسر ويقفل، يا إما حيغلّى أسعاره جدا وما أعرفش مين اللى حيركبه غير الناس الدوليين؟

* * *

(٢٩)

تشغل قضية التعليم والدروس الخصوصية قمة هرم اهتمامات المواطن المصرى . . ولا يشارك تلك القضية القمة سوى قضية الجرى وراء الرزق . . فكلا القضيتين تشكلان محور فكر السواد الأعظم من الناس . . باعتبار المجتمع المصرى مجتمعًا عائليًا بالأساس والأطفال يملئون العائلة المصرية بالضجيج والحب والأمل والهم وبالتأكيد بمشكلة التعليم والدروس الخصوصية.

ولاكتمال دورة الأفلاك، فكل مصرى يجرى وراء الرزق لكى يعطيه للمدرسين الخصوصيين . . والدروس الخصوصية مثلها مثل الماركات . . تجد منها تنويعات بكافة الأسعار لكى تناسب كل الطبقات والشرائح الاجتماعية، فدرس الحساب يمكن أن يكون بعشرة جنيهات للحصة وكذلك يمكن أن يكون بمائة جنيه . . ولو كان إيرادك لا يسمح بدفع عشرة جنيهات فهناك فصول للتقوية والمجاميع والمراكز . . إلخ من بيزنيس لا أول له ولا آخر.

ويكفى أن تضغط مع أى سائق تاكسى له أولاد فى سن التعليم على زر التعليم كى ينطلق كالصاروخ ولا يمكن إيقافه ولا بمهندسين ناسا شخصيًا.

وكنت فى ذلك اليوم فى سبتمبر عام ٢٠٠٥ قد دفعت مصاريف أولادى الثلاثة وبمجرد جلوسى فى سيارة الأجرة، والأموال التى دفعتها للمدرسة لم تبرد بعد، ضغطت على زر التشغيل وإذا بالسائق ينطلق.

السائق: أنا ولادى حيجبولى نقطة.. الواد الحيلة فى ستة ابتدائى، والله مابيعرفش يكتب اسمه وفى آخر السنة يروحوا يغششوه وينجح على السنة اللى بعديها وإلا المدرسة تروح فى داهية وتدخل مع الوزارة فى سين وجيم.. وعندى بنتين فى الثانوية، واحدة فى تالتة ثانوى والتانية فى تانية ثانوى..

الحمد لله البنات شطّار.. بس مضيعينى دروس خصوصية، والله بدفع لكل بنت فى الشهر الواحد مائة وعشرين جنيه. تخيل إنت، بتاخد كل واحدة دروس فى تلات مواد، كل مادة بأربعين جنيه فى الشهر.. خراب بيوت مستعجل، أمّال الواد «ألبير» لما يكبر وهو مخه مضلّم كده حادفع له كام دروس خصوصية..

النظام عندنا إيه؟ إن إيفلين، البت الكبيرة، بتديله دروس

خصوصية وتاخد منى فلوس علشان تدفعها لدروسها الخصوصية.. ما أنا برضه لازم أعلّمها إنها تكسب فلوسها بجهدها..

(ضاحكا) بس واضح إنها خايبة مش عارفة تعلمه حاجة و بتاخد منى فلوس وخلاص.

أنا: طب وفين المدرسة؟

السائق: مدرسة إيه؟ بقولك مابيعرفش يكتب اسمه.. تقول لى مدرسة.. آدى يا سيدى التعليم المجانى.. برقع الحياء اتشال خلاص.. دلوقتى ماتدفعش حاجة.. ماتاخدش حاجة.. والمصيبة إن إحنا كمان بندفع.. فى الابتدائى بندفع ٤٠ جنيه عشان نستلم الكتب وفى الإعدادى وفى الثانوى بندفع ٨٠ جنيه وميت جنيه.. ومن غير ما ندفع مافيش كتب.. يعنى النظام يا الدفع يا مفيش الكتب.

التعليم لكل الناس ده يا أستاذ كان حلم جميل زى أحلام كتير راحت ومافضلش منها غير الشكل والمنظر.. على الورق التعليم كالماء والهواء.. إجبارى لكل الناس.. ولكن الحقيقة الأغنياء بيتعلموا وبيشتغلوا ويكسبوا، والفقراء ما بيتعلموش حاجة ومابيشتغلوش حاجة ومابيكسبوش حاجة. ومتلقحين كلهم أورَيهومَلْك مش لاقيين لا شغلة ولا مشغلة. ماعدا طبعا العباقرة وأكيد الواد «ألبير» مش من ضمنهم..

بس أهو أنا باحاول. وبدفع الدروس الخصوصية وأنا زى الكلب، حاعمل إيه تانى.. وباقول احتمال ربنا ينفخ فى صورته ويبقى زويل [1] تانى.. مين يعرف؟؟

* * *

(١) د. أحمد زويل: ٢٦ فبراير ١٩٤٦، أول عالم عربى يحصل على جائزة نوبل فى الكيمياء.

(٣٠)

أعتبر نفسى من أشد المعادين لحقوق الملكية الفكرية فى إطار الاتساع اليومى بل اللحظى للهوة التى تفصلنا نحن العالم المتخلف عن العالم المتقدم، ولإيمانى بحتمية فتح كل السبل أمام الشعب الذى أنتمى إليه للثقافة وللدواء لمواجهة الثنائى الشرس الجهل والمرض الذى ينهش فى مجتمعى منذ قرون. وطبعا لن يتأتى ذلك بحماية حقوق الملكية الفكرية التى سوف تجعل أسعار الدواء فى متناول الأغنياء فقط وسوف تجعل من الثقافة رفاهية ربما لا يقدر عليها الأغنياء أنفسهم.. ونتيجة لكل ما تقدم، كنت أجلس فى شركة كمبيوتر أضع على جهاز الكمبيوتر الخاص بى برامج منسوخة أى مضروبة.. لأن أسعار البرامج الأصلية تدخل فى إطار النكتة البايخة.. وبعد أن انتهيت من ضرب عدد كبير من البرامج، ووضعتهم على جهاز الكمبيوتر الخاص بى. نزلت من الشركة الواقعة فى شارع قصر العينى لأبحث عن تاكسى. وأثناء وقوفى على الرصيف اقترب منى ماسح أحذية.

ماسح الأحذية: تمسح يا بيه.

أنا : أنا مستنى تاكسى .

ماسح الأحذية : الساعة اتنين الضهر مش ح تلاقى على طول . . امسح الأول وبعد كده أنا ح أجيب لك تاكسى . . وبعدين بص حضرتك . . جزمتك وسخة جدا .

أنا : امسح يا سيدى .

ماسح الأحذية : حضرتك رايح على فين؟

أنا : رايح الزمالك .

ماسح الأحذية : ممكن سعادتك تاخدنى معاك ينوبك ثواب؟

أنا : أخدك ، مااخدكش ليه!

ماسح الأحذية : ربنا يخليك . . وعندك أولاد .

أنا : أيوه عندى تلاتة .

ماسح الأحذية : الله ، بصرة ، أنا كمان عندى تلاتة ، واحد فى تانية معهد أزهرى بس للأسف راح طنطا . . والتانية فى تانية ثانوى وآخر العنقود فى تالتة إعدادى .

أنا : إنت سابقنى شوية . . بس شكلك صغير . . مايجبش كل السنين دى .

ماسح الأحذية : أنا عندى خمسة وأربعين سنة ، ما أنا إتجوزت عندى واحد وعشرين . . بس الحمد لله ، ربنا موفقنى والعيال

طالعة زى الفل ، كلهم متفوقين وبيطلعوا ماشاء الله من الأوائل . . اللى مزعلنى الواد اللى مجموعه وداه طنطا ده . . بس كلها سنة ويحول على القاهرة . .

أخرج لى صورة فوتوغرافية تجمعه بأبنائه الثلاثة . . يبدو أنها صورة حديثة . . الجميع مبتسم ابتسامة عريضة . . الأب يقف فى الوسط يحضن ابنه الكبير الذى يقف على يمينه ويحضن بيده الأخرى ابنته التى تقف على يساره ، وآخر العنقود يقف أمام الأب ويمد أخوه وأخته كل منهما يده ليضعوها على كتف أخيهم الصغير .

ماسح الأحذية : دى صورة أخدها لينا أخويا . . ده عايش فى السعودية بقاله ييجى عشرين سنة . .

أنا : صورة جميلة ، ربنا يخللى .

ماسح الأحذية : الحمد لله ربنا راضى عنى قوى . . الأشيا معدن والعيال بيكبروا وبيزهروا . . حد فى الدنيا عايز أكتر من كده .

أنا : تاكسى أهو . . زمالك . . زمالك . . ح تيجى معايا .

ماسح الأحذية : جاى . . مش إحنا اتفقنا .

أنا : اتفقنا .

وركبنا التاكسى ، جلست أنا فى الأمام بجانب السائق ، وهو

ركب خلفى ووضع عدته على حجره، نظر السائق لماسح الأحذية باشمئزاز، ثم وجه حديثه لى:

السائق: إنتم مع بعض.

أنا: أيوه مع بعض.

السائق: مع بعض إزاى.. لا كل واحد ح يدفع أجرة.

أنا: قلت لك مع بعض.

السائق: طب أنا حاخد سبعة جنيه.

أنا: طب ما تتكلم بأدب..

السائق: أهو أنا كده، غلس، حد شريكى.

وفجأة نزل ماسح الأحذية، نزلت وراءه ولكنه جرى عكس اتجاه السير، ناديت عليه ولا مجيب.. اختفى وسط الزحام.. نظرت إلى السائق نظرة غضب، وقلت له: إنت إيه؟ مش بنى آدم؟

للغرابة لم يرد السائق وانطلق بالسيارة وقررت أنا السير حتى الزمالك.. وعند وصولى إلى هناك وجدت حذائى أوسخ مما كان.

* * *

(٣١)

عندما تكون المسافة قصيرة جدا، لا أسعى لفتح موضوع مع السائق، فقد ركبت التاكسى من شارع جزيرة العرب فى المهندسين إلى ميدان لبنان.. رحلة لا تستغرق ثلاث دقائق.

كان السائق يسمع أغنية «لسه فاكر» لأم كلثوم.. وكان هذا سبب آخر لالتزامى الصمت كى أستمتع بالأغنية فقلما يضع السائقون أغانى جميلة.

ولكن هذه المرة لم يمهلنى السائق وسألنى سؤالا فى منتهى الغرابة «تعرف إيه يا باشا أبشع حاجة فى الدنيا؟».

تصورت فى البداية أنه يمزح.. ولكنى رأيت وجهه جاداً.

فكرت قليلاً وأجبت «إن مصر كانت تتغلب إمبارح قدام كوت ديفوار» فكان ذلك فى اليوم التالى لنهائيات كأس الأمم الأفريقية والتى انتهت لصالح مصر على أرضها بضربات الجزاء أمام كوت ديفوار.

فأجاب: لا.. فيه حاجة أبشع بكتير..

أنا : زى إيه ؟

السائق : إن حد يحب لامؤاخذة شرموطة .

أنا : وإنت تعرف حد حب شرموطة وحكى لك؟

السائق : أنا ياباشا . . أنا بحب واحدة . . لامؤاخذة شرموطة .

كنا قد وصلنا أمام مقهى «باسكوا»، وكانت أختى وابن خالى فى انتظارى هناك، ولكن السائق كان قد أشعل فتيل الفضول المتوقد داخلنا . . هذا بالإضافة إلى أنه كانت لديه رغبة أكيدة فى الكلام .

توقف التاكسى وأكملت الحوار .

أنا : وازاى ده حصل؟

السائق : ركبت معايا واحدة محجبة وشكلها محترم جدا حوالى الساعة ١١ بالليل وطلبت منى أوصلها المهندسين . . الكلام ده كان آخر أغسطس يعنى من ٥ ـ ٦ شهور، وصلتها شارع دمشق، قالتلى تجيلى بعد ساعتين هنا علشان أنا رايحة زيارة لمريض ومش ح أعرف أروّح متأخر كده، ينوبك ثواب عند ربنا . . أنا راجل صعيدى أصلا وطبعا قلت دى حرمة والليل غدّار، واتفقت معاها إنى أرجع لها بعد ساعتين . . وبالفعل رحت لها ونزلت لى وطلبت منى أوديها منشية ناصر . . طلبت منها خمسة وعشرين جنيه . . قالت لى ح أديك الطاق طاقين . . ح أديك خمسين جنيه أصل الزبون كان كريم حبتين .

هى قالت الزبون من هنا وحسيت إن الكلمة دخلت زى الصاروخ فى صرصور ودنى، خرمت نافوخى . . وشى اتقلب .

أمل قالت لى، أصل اسمها أمل، يعنى كنت عايزنى أقولك لك إيه؟ يعنى بذمتك فيه واحدة تروح لمريض فى نصاص الليالى مش المفروض إنك تبقى مفتح .

وكلمة من هنا وكلمة هناك . . البت صعبت علىّ واتفقت معاها إنى أوصلها بكرة لنفس العنوان الساعة ١٠ بالليل . ماطولش عليك قعدت معاها أسبوع وقالت لى بعد كده يا عم متشكرين ولو محتاج حاجة آدى موبايلى أهه إبقى كلّمنى .

مش عارف إيه اللى حصل لى . . مابقتش عارف أفكر غير فى بنت الوسخة دى . . وأقول لنفسى: شررموطة . . شررموطة!! واللى زاد وغطّى إنى طول ما أنا ماشى فى الشارع باشوفها، آجى مفرمل ألاقى واحدة تانية بس نفس طولها، أو واحدة تانية محجبة أو حتى مش شبهها خالص، قلت أنا اتجننت والبت أكيد عاملة لى عمل . رحت مكلمها على الموبايل ولما شفتها لقيت نفسى بقول لها باحبك . . مش عارف إزاى . . ضحكت قوى وقالت لى :

إنت عايز تنط ولا عايز تعط؟

قلت لها عايز أتجوز . .

ردت وقالت لى تبقى أكيد حمار .

ومش عارف أعمل إيه يا باشا؟؟ تصدق واحد صعيدى زى حالاتى ومن سوهاج يحب، ومن قلبه، واحدة شررموطة.. بفكر فيها طول النهار والليل، بشوف صورتها فى كل الستات، بحبها.

ربنا ما يوريك، آهى دى عن حق أكبر لعنة فى الدنيا.

نزلت من التاكسى وقلت له من الشباك.. كده إنت لا نطّيت، ولا عطّيت، ولا إتجوزت. كان الله فى عونك!

* * *

(٣٢)

كدنا نصطدم بأكثر من سيارة ولم تمر سوى دقائق قليلة على تحركنا، وفى كل مرة تنقذنا العناية الإلهية من حادثة محققة.. كان السائق شابا أهوج، حليق الرأس.. رفيعاً حتى يكاد أن يتلاشى، كل ملابسه مهرولة عليه، فعلى الأرجح أن مقاسه لايوجد إلا فى محلات الأطفال.. باهت الوجه من سوء تغذية تاريخى.. قصير القامة، ذكرتنى حالته الجسمانية والصحية بالمعلومة الإحصائية المرعبة أن عشرة بالمائة من أطفال مصر بالصعيد لديهم تخلف عقلى من سوء التغذية. وكذلك بالتقرير الذى سمعته بالإذاعة المصرية أن هناك مشكلة تواجه طلبات تلقى طيارين عسكريين جدد، حيث إن كل المتقدمين - مع وجود استثناءات قليلة جدا - يتم رفضهم لأسباب خاصة بلياقاتهم الجسمانية أو النفسية، وقد صرح اللواء المسئول أن ذلك يعبر ولا شك عن حالة سوء التغذية عامة فى المجتمع المصرى..

هذا السائق المسكين يعد نموذجا جيدا لهذه الكارثة.. لا مجال الآن للتفكير فى المشكلات العامة حيث يبدو إننى قد أموت فى

حادثة خلال دقائق، فأنا لا أعرف كيف لم نصطدم بسيارة حتى الآن.. والحمد لله دخلنا فى شارع مزدحم وتوقفنا عن السير تماما.

أنا: إنت إتعلمت سواقة فين ؟

السائق: فى الجيش.. ما أنا لسه متخرج.

أنا: اتخرّجت منين؟

السائق: من الجيش.. كنت شغال سواق.. اتعلمت السواقة واشتغلت سواق.. كنا فى طريق السويس.. وكنت باسوق عربيات الجيش الكبيرة.

أنا: فى الصحراء.

السواق: أيوه فى الصحراء.

أنا: أنا رأيى إنك تكتفى بالسواقة فى الصحراء.. لم يفهم النكتة وأكمل حديثه.

السواق: الجيش ده كان أحلى أيام.. قضيت فيه تلات سنين.. ماأظنش إنى ح أشوف أجمل منهم.. صحبة ومحبة.. ده أنا بقى عندى صحاب ياما.. صحاب صحاب، رجالة يعنى لو تحتاج لهم تلاقيهم.. بصراحة كل اللى أنا أعرفه دلوقتى اتعلمته من الجيش.. مش بس السواقة.. لا.. كل حاجة، الجيش ده مدرسة عن حق.. مدرسة تطلّع رجالة. أنا بعد

ما تجنيدى خلص.. كنت عايز أتطوع وبعدين جت حكاية التاكسى ده.. خدتنى شوية.

أنا: كنت عايز تتطوع!!

السائق: أيوه.. دى أحلى عيشة.. مرتب ثابت.. برضه إن فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه.

أنا: ولو تطوعت واتمرّغت فى الميرى تاخد كام؟

السائق: لا مرتب كويس جدا.. يعنى فى حدود تلتمية وخمسين جنيه فى الشهر.. حد لاقيهم دول.. بس تقول إيه.. التاكسى خدنى شوية.

أنا: وبتكسب كويس من التاكسى؟

السائق: والله ما أنا عارف، اللى بكسبه بصرفه فورا.

أنا: يعنى تقريبا قد إيه؟

السائق: والله عمرى ما حسبتها، كسبت جنيه بأصرف جنيه، كسبت عشرة بأصرف عشرة. ممشيها بالتُكال وعلى فكرة مفيش سواق فى مصر يقدر يقولك بيكسب كام، كله بالتُكال.

وبدأ الزحام يقل تدريجيا، وخفت أنا من الاستمرار معه وقلت لنفسى «مِن خاف سلم»، ونزلت من السيارة أبحث عن تاكسى آخر.

* * *

(٣٣)

هذا السائق غاضب.. بل غاضب جدا، ويمكننى القول إنه فى حالة ثورة.. فهو يصرخ فى وجهى وكأننى السبب فى مشاكله كلها.

كان شابا فى الثلاثين من العمر.. يبدو أنه خريج جامعى.. حاولت تهدئته دون جدوى وفى النهاية حكى لى سبب ثورته:

إمبارح سحبوا منى الرخص.. قال إيه كنت بتكلم فى الموبايل. والله والله ما كنتش بتكلم فى الموبايل، كنت ماسكه بس، حاولت أجيب الرخص عن طريق واسطة، كان الكمين مشى، النهاردة الصبح دبيت مشوار لمرور نكلة فى آخر الدنيا ما إحنا سواقين ولاد كلب لازم يرموا المرور اللى تبعنا فى آخر بلاد المسلمين، واد مخلصاتى قاللى الرخصة ماجاتش لسه فى المرور. ضيعوا علىّ ساعتين شغل إمبارح وساعتين النهاردة، ولسه.. وشوف ح أدفع كام وأتذلل قد إيه عشان أجيبها.. طلوع دين.. وهناك فى المرور أمم، ومفيش خطوة من غير كع ورشاوى، حاجة وسخة.

أنا مش فاهم هما عايزين مننا إيه؟ شغل ومفيش.. قلنا نشتغل أى حاجة.. واقفين لنا بالمرصاد فى أى شغلانة.. عمالين ينهبوا ويسرقوا ويرتشوا وآخرتها إيه مش عارف؟ أنا زى ما بصرف كل يوم فلوس على البنزين، لازم أحط فلوس رشاوى للمرور يوماتى على الله.

طب ما فى الآخر ح نهج زى ما كله بيهج.. واضح إن دى الخطة الحقيقية للحكومة.. إنها تخلّينا كلنا نهج على برة.. بس أنا مش فاهم لو هجينا كلنا الحكومة ح تسرق مين؟! مش ح يفضل حد تسرقه.

والله ما أنا فاهم وزير الداخلية قبل ما ينام بالليل بيفكر هو بيعمل فينا إيه؟ بيفكر إن إحنا ولاد ناس متعلمين وأهلنا تعبوا فى تعليمنا قد إيه؟ بيفكر قد إيه بنتهان من رجالته فى الشارع؟ بيفكر وهو راسه على المخدة إن إحنا خلاص مش قادرين وح ننفجر خلاص.. والله ماقادرين نستحمل.. إحنا بنموّت نفسنا عشان نعيش.. والداخلية بتعاملنا كأننا مجرمين.. وطبعا كدابين.. كلنا كدابين بالنسبة لأى ظابط.. واضح إنهم بيعلموهم كده فى كلية الشرطة، إن الإنسان يولد كذابا ويعيش كذابا ويتنفس كذبا ويموت كذابا.. لما إمبارح بقول له ماكنتش بتكلم فى الموبايل.. قال لى ما إنت ماسكه فى إيديك أهه وكنت بتتكلم. مافكرش لحظة واحدة إن أنا ممكن أكون صادق.. صادق!! صادق إزاى إذا كنا كلنا كدابين وكلنا ولاد كلب ولازم

نضّرِب بالجزمة القديمة، والله أنا حاسس إننا مش بنى آدمين . . إننا جزم قديمة .

إيه رأيك يا أستاذ أنا بنى آدم ولا جزمة؟

نظر إلىّ منتظرا الإجابة، فلم أتمالك نفسى من الضحك، فقد كانت ثورته عنيفة لدرجة تدعو إلى الضحك وربما للبكاء أيضا، ثم اعتذرت له قائلا : طبعا بنى آدم .

قال لى فى النهاية : «همّ يضَحّك وهمّ يبكى» .

اعتذر لى أنه فرّغ فىّ شحنة غضبه معللاً ذلك بأننى أول زبون أركب معه بعد عودته من المرور .

وبعد أن هدأ قليلا، قال لى :

السائق : إنت عارف إيه السبب فى المصيبة دى كلها؟

سألته عن السبب، فقال لى ضاحكا :

الحكاية إن أنا وأنا ماشى جالى إس إم إس SMS بصيت، لقيته نكتة فضحكت قوى وأنا داخل على اللجنة . . افتكرونى بتكلم فى الموبايل! . . نكتة وديتنى فى داهية!

أنا : وكانت إيه النكتة دى؟

السائق : نشكر كل من قال نعم فى الاستفتاء ونخص بالشكر أم نعيمة لأنها قالت نعمين .

وانفجرنا معًا فى الضحك .

* * *

(٢٤)

كنت فى طريقى إلى مصر الجديدة، وكان عندى موعد هام فى الشئون المعنوية للقوات المسلحة للتصريح لى بالتصوير أمام المنصة، وكان الموعد محددا منذ فترة طويلة . ولم أكن أريد أن أتاخر فذهبت مبكراً بنصف ساعة تقريبا على الأقل . .

استقليت تاكسى من الدقى . . وأخذنا طريق كوبرى ٦ أكتوبر، وكان الطريق مزدحما كالعادة، ولكننى كنت أضع فى بطنى بطيخة صيفى . . وفى المدة التى كنت قد حددتها بالتقريب وصلنا إلى طريق صلاح سالم وعند اقترابنا من أرض المعارض توقف الطريق تماما، لم أهتم كثيراً . . ولكن الانتظار طال ومرت الدقائق بطيئة وبدأنا نسأل السيارات المجاورة عن السبب . . فقيل لنا إن الرئيس مبارك نازل مشوار . . طيب ربنا يوصله بالسلامة، وكلها دقائق أخرى وسوف يفتح الطريق . .

ظللنا جالسين فى السيارة التى تحولت بفعل قوة سحرية إلى مجرد حجر قابع فى وسط الطريق لا يتزحزح قيد أنملة ولو بقوة هرقل الجبار، حتى اقترب انتظارنا من الساعة . قررت أن أدفع للسائق الأجرة وأن أنزل وأمشى فلا شك أن المشى أفضل من

الجلوس . . وبمجرد أن شرعت فى النزول حتى اقترب منى ضابط ومنعنى من النزول . .

أنا : إزاى يعنى؟

الضابط : ممنوع يا أستاذ . . لازم تفضل فى العربية .

أنا : يعنى إيه . . ده شارع . . وأنا عايز أمشى فى الشارع على رجلى .

الضابط : ممنوع يا أستاذ . . ادخل العربية .

دخلت التاكسى صاغرا ، وضحك السائق عاليا .

السائق : يعنى عايز تسيبنى لوحدى فى الهم ده . شوف ربنا .

أنا : أنا كنت بحاول ألحق ميعادى .

السائق : لا ميعاد إيه . . دى لطعة كبيرة . . أنا مرة وقفت هنا أربع ساعات ما بتحركش .

أنا : يانهار أسود أربع ساعات ! !

السائق : يوميها خرجت من هنا ، رجَّعت العربية لصاحبها . . ودفعت له كل اللى معايا وقلت معلش ح أديك الباقى بكرة وروَّحت والله نما كلنا من غير عشاء ، كانت مراتى وعيالى مستنّيّنى زى كل يوم على العشا ، رجعت وإيديا فاضية . . مراتى عيَّطت ونيِّمت العيال . . وفضلت أنا جنب الشباك أسمع قرآن عشان أهدى نفسى .

أنا : طب والنهاردة حتعمل إيه ؟

السائق : البركة فيك . . تعوض لى الكام ساعة اللى حنتلطعهم هنا .

أنا : القصة دى كلها عشان أعوضك أنا النهاردة؟

السائق : لا والختمة الشريفة . . اللى باحكيهولك صدق . . ولو ياعم مش عايز تدفع غير اللى دفعته أنا راضى . . بس خليك معايا نتسلى .

وجلسنا قرابة الثلاث ساعات نتسلى ، حكى لى أنه كان يعشق القاهرة ثم بدأ يحبها ، ثم بدأ يشعر تجاهها بمشاعر متضاربة ، ثم كرهها والآن هو يمقتها .

وحكى لى فى النهاية حوالى عشرين نكتة ورديت عليه بمثلهم ، وللأسف لا أستطيع أن أحكيها لكم فكل نكتة منهم كفيلة بأن تدخلنى السجن بتهمة القذف ، رغم عدم فهمى لماذا أدخل السجن بسبب نكت يعرفها معظم الشعب المصرى ويتداولها يوميا ويضحك عليها؟

ولأنى بالطبع لا أريد أن أسجن فأكتفى بالقول إننا ضحكنا كثيرا وإن كنت لم أذهب إلى موعدى .

فى ذلك اليوم أخرجت البطيخة الصيفى من بطنى نهائيًا وإلى الأبد .

* * *

(٣٥)

هنا القاهرة . . نشرة الأخبار . . ثم أتحفنا المذيع أثناء النشرة، بعد طبعا تفصيل ما فعله الرئيس مبارك أثناء اليوم، بعدد لا يحصى من الحوادث والتفجيرات فى كل أنحاء العالم فى إسرائيل وفى العراق وفى الهند وفى باكستان وفى الفلبين .

السائق : هما ليه مصممين إن إحنا متخلفين عقليا وأغبياء وبريالة ولسه مطلعناش كلنا من الحضانة .

أنا من ساعة ما وعيت وكل ما تحصل مصيبة يجيبولنا نفس المصيبة فى الدنيا كلها . .

تحصل حادثة قطر عندنا، فجأة نقعد كام يوم نسمع عن كل حوادث القُطُرة اللى حصلت فى العالم .

ساعة الطيارة ما وقعت ولا إتضربت، جابولنا حوادث الطيارات اللى فى الدنيا وفى الآخرة بما فيها حوادث طيارات الرش .

المرة دى بعد الحادثة الإرهابية بتاعة التحرير . . هاربينا حوادث

فى كل حتة . . أنا إمبارح سمعت إن واحد كان ماشى فى أمريكا وضرب نار على واحد تانى فى الشارع، زى ما إنت شايف حادثة مهمة قوى . بكرة ح يقولوا لنا إن فيه عمليات إرهابية فى بلاد الواق الواق وفى بلاد تركب الأفيال . .

وبعدين تطلع علينا مذيعة أطفال وتكلمنا فى الإذاعة بالصوت بتاع اشربوا اللبن قبل ما تناموا وتقعد تدينا فى نصائح بصوت أم حنون باعتبار إن الشعب لسه ماشالش الكفولة .

أنا نفسى أعرف هو فيه حد بلّغ وزير الإعلام، ده واللى قبليه واللى قبليه، إننا متخلفين عقليا ولا احتمال بلغوه إننا لسه بنرضع .

وبعدين ما بيزهقوش . . كل مرة نفس الحكاية بتتكرر . . لغاية ما الواحد مابقاش عايز يسمع إذاعة ولا يقرا جرنال .

وبينى وبينك زهقنا كمان من أخبار الرئيس، كل نشرة، الرئيس قابل والرئيس اتصل بفلان، وفلان كلمه على الموبايل، أنا مالى هو كلم مين ولا راح افتتح إيه، أما الأخبار اللى تهمنا مفيش أى سيرة عليها، حاجة تقرف، كل واحد عايز يتمحلس شوية يتمحلس على قفايا أنا، أنا رأيى يعملوا إذاعات فيها نشرات بجد ونشرات محلسة ويسموها كده، عشان الرئيس يسمع نشرات المحلسة ويبقى يرقيهم وإحنا نسمع بقية النشرات .

ونفسى قوى أبلغ وزير الإعلام إننا أذكى منه ميت مرة

وفاهمين الدنيا أكتر منه ميتين مرة . . بس ح أشوفه فين وزير الإعلام ده عشان أقول له . .

إيه رأيك أبعت له تلغراف؟

ولا احتمال يقبضوا عليّ لو بعتله تلغراف؟

ياعم أنا مالى هى كانت بلدنا!!

دى بلادهم همه، يعملوا فيها اللى همه عاوزينه، وإحنا خلينا فى التاكسى!

* * *

(٣٦)

اليوم تم نشر صور من تقدموا بأوراقهم لخوض الانتخابات الرئاسية فى الصحف القومية مع تعريف قصير بكل منهم.

السائق: والله أنا عمرى ما ضحكت قد النهاردة. . أما شفت الجرنال وشفت صور اللى مرشحين نفسهم، ضحكت من قلبى، شكلهم زى «على حكشة» و«سوسو الأعرج»، حاجة حقيقى تهلك من الضحك، جايبين ناس عمر ماحد سمع عنهم حاجة.

ده حتى تلاقى أمهم نفسها ما سمعتش عنهم حاجة. . ولا الواد الأراجوز اللى عاملين ينفخوا فيه لغاية ما بقه قد البالونة عشان يقولوا أهه برضه فيه الأستاذ بالونة دخل الانتخابات[1].

إنت عارف حضرتك الناس دى دخلت اللعبة دى ليه؟

أنا: ليه؟

(١) ذكر لى السائق اسمًا بعينه، ولكن قال لى صديق محامٍ إننى يجب أن أحذفه خوفًا من رفع دعوى قضائية ضدى.

السائق: بيقولوا والله هو أعلم إن مفيش حد خالص كان عايز يدخل.. لعبة مش بتاعة حد غير الحكومة.. يدخلوها ليه؟ الحكومة عايزة تبان قدام الأمريكان إنها ديمقراطية عشان الدعم ما يقفش والاقتصاد ما ينهارش، فبتعمل المسرحية دى.. حلو قوى.. لكن حيجيبوا منين اللى يمثلوا فى المسرحية، وهو أصلا مفيش ممثلين عندنا من النوع ده فى المسرحيات الهزلية، جه دور المخرج الكبير.. ما هو الراجل كان بيعمل مسلسلات كتير وفاهم.. قالك إن الحكومة حتدى فلوس للدعاية الانتخابية لكل مرشح، ما هو لازم الممثل ياخد أجر، اشمعنى يحيى الفخرانى يعنى.

فيه كذا زبون قالوا لى أرقام بس كل واحد. قال لى حاجة.. فيه واحد قال لى الحكومة ح تدفع لكل مرشح مليون وفيه واحد قال لى تلاتة أربع مليون. طبعا الفلوس دى ح يدفعوا ربعها للدعاية.. ويحطوا الباقى فى جيوبهم ويطلعوا من المولد بشوية حمص.

النكتة الأصلى واحد قالها لى النهاردة وقعدنا نضحك.. إن واحد من اللى مرشح نفسه ضد مبارك عشان ياخد اللى فيه القسمة قال إن هو نفسه ح يرشح مبارك.. والله أنا ما مصدق.. بس الراجل حلف لى إنه قال كده فعلا[1].. أصل مسرحيات

---

(١) نفس الملاحظة السابقة واضطررت لحذف الاسم.

عادل إمام باخت وبيعملها للعرب وبس، والشعب بطَّل يتفرج. وهنيدى أفلامه باظت.. قالوا همه نعمل مسرحية الصيف.. نضَّحك بيها الناس بدل ما همه مكلضمين..

هو حضرتك شفت الصور النهاردة فى الجرنال..

أنا: شفتهم.

السائق: وماضحكتش.

أنا: والله ما أعرفش منهم ولا واحد.. ودى طبعا حاجة تضحك.

السائق: أنا بصراحة ماحبش مبارك وقلت أى حد ح ينزل ضده فى الانتخابات ح أبقى معاه، بس بعد ما شفت اللى نازلين ضده قلت لا، مبارك برضه أحسن واحد فيهم.. يعنى مش موضوع أحسن واحد، هو الوحيد اللى ممكن حد ينتخبه..

أنا: يعنى حتروح تنتخبه؟

السائق: لا.. أنا مابنتخبش حد.. قصدى على اللى بيروحوا.

* * *

(٣٧)

أحداث النصب على سائقى التاكسى كثيرة أحكى منها قصتين، عرفت القصة الأولى عندما ركبت التاكسى من الكورنيش أمام التليفزيون متوجها إلى المنيرة.. وكان أقصر الطرق هو أن نخترق طريق جاردن سيتى، ووجدت السائق يحاول إيجاد طريق آخر وفى النهاية وافق على مضض.

أنا: ليه.. أنت ضد جاردن سيتى فى حاجة؟ بتشجع الزمالك ولا إيه؟

السائق: لا والله أنا ما بشجعش حد ولا فارق معايا أى حد.. الحكاية إنى مابحبش أعدى فى الشارع ده.

أنا: ليه؟

السائق: أصلى اتنصب علىّ فيه الشهر اللى فات.

أنا: إزاى؟

السائق: دخل التاكسى راجل وجيه جدا، شكله ابن ناس جدا، لابس حلو جدا. ركب من الزمالك وقال لى المعادى يا

أسطى.. قلت له اتفضل وإحنا فى الطريق.. قال لى ماعلهش ح ندخل جاردن سيتى أجيب دوا لأختى فى ثانية ونكمل على المعادى.. قلت له مفيش مشكلة.. دخلنا جاردن سيتى ووقفنا قدام صيدلية.. نزل ورجع بعد دقيقة.. وقال لى ح نضطر نرجع الزمالك أو نروح المعادى ونرجع بسرعة علشان اكتشفت إن محفظتى مش معايا.. قلت له.. مش مشكلة، مش بيت سعادتك فى المعادى برضه؟ قال لى: أيوه.. قلت له: أدفع لسعادتك ثمن الدوا دلوقتى وأما أوصّل سعادتك المعادى إبقى ادفع لى. طلع ثمن الدوا ٤٢ جنيه. إديته خمسين جنيه.. اشترى الدوا وخرج بكيس من الأجزخانة ومفيش خطوتين وقفنى قدام عمارة وقال لى ثانية وراجع لك.. فضلت مستنى يجى نص ساعة.. مفيش.. دخلت أدور عليه.. مفيش.. رحت رابح الصيدلية وصفت لهم شكله! الدكتور قال لى أيوه اشترى ريفو بنصف جنيه وصمم ياخد كيس علشان عايز يفتكر اسم الصيدلية!

ومن يومها كاره أعدى فى الشارع ده، بيفكرنى إنى حمار.

أما القصة الثانية فكلاسيكية جدا وربما تكون قد حدثت بحذافيرها مع عدد كبير من السائقين الغلابة، ولكن السائق الذى حكى لى تلك القصة مخضرم عتيد فى السواقة وليس فى الإجرام، يمارس المهنة منذ عام ١٩٦٦، وملخصها أن أحد الزبائن طلب من السائق أن يستأجر التاكسى لنصف نهار مقابل مبلغ مائة جنيه، وافق السائق بدل «ما يلف طول النهار فى

الشوارع»، وبالفعل دار معه بين ضواحى القاهرة ومناحيها، وفى النهاية وقف أمام عمارة وطلب من السائق انتظاره خمس دقائق، وبالطبع اكتشف السائق فى النهاية أن للعمارة مدخلا آخر.

يومها بكى السائق لأول مرة منذ سنوات عديدة على عَبَطه وجهده وغبائه، وضيع بقية النهار للبحث عن قريب يقرضه ثمن إيجار التاكسى فى الوردية وكان خمسون جنيها: «صاحب التاكسى اللى أنا بأشتغل عليه.. إيه ذنبه إنى أهبَل؟».

قال لى السائق المخضرم: «الدنيا بقت سمك بياكل فى بعضه، صغير وكبير كُلُّه بيهبش».

حالة العوز والفقر جعلت تحول الإنسان إلى السمك منتشرة، رائحة الزفارة أصبحت تزكم أنفى فى كل مكان أسير فيه فى القاهرة، وأصبحت أرى أخيرا أسماكا تتوحش فى البرك والمستنقعات والمجارى الممتدة على جانبى الطرق تستعد للانقضاض علىّ فى أية لحظة.

* * *

(٣٨)

كنت فى ميدان سفير بمصر الجديدة، مر أمامى تاكسى وآخر وأوقفت الثالث.. وبمجرد جلوسى إلى جانب السائق بادرنى بالسؤال عن السبب وراء عدم مشاورتى للسيارات التى كانت أمامه مباشرة.. أجبت إننى لا أحب كثيرا السيارات الجديدة كالسوزوكى والهيونداى لأنها صغيرة بالنسبة لحجمى، أفضل السيارات القديمة كسيارته الفيات ١٤٠٠ أو البيجو ٥٠٤ ومثيلاتها.

ترحم السائق على أيام زمان، أيام كان التاكسى عزيز، ولكنه الآن يلف عشرات المرات قبل أن يجد زبونا واحدا.

السائق: كل ده من ساعة ما طلعوا قرار أن أى عربية قديمة ممكن تقلب تاكسى، كل من هب ودب أياميها راح قالب عربيته تاكسى.. أصبحت مهنة من لا مهنة له، والله مصيبة..

أنا: والحكاية دى حصلت إمتى؟

السائق: الكلام ده فى نص التسعينات.. فجأة فتحوها على البَهلى.. والله أنا أعرف ناس كان عندها عربيات كُهنة وقلبوها

تاكسى . . وفى نفس الوقت بالضبط فى نص التسعينات برضه عملوا وزارة بيئة وقعدت تقول العربيات القديمة بتلوث الجو وبتطلّع قطران يدخل فى الرئة، ونزلُوا ناس فى الشارع تقيس من الشكمان وطلّعوا عينينا وما عرفوش يعملوا معانا حاجة فى الآخر.

يعنى دول ماشيين فى شارع ودول ماشيين فى شارع تانى خالص، والاتنين فى نفس الحكومة . . طب إزاى ماتفهمش.

من يومها بقى فيه كمية تاكسيات فى الشارع بالهبل، عارف فيه كام تاكسى فى القاهرة ؟

أنا : لا ما أعرفش.

السائق : فيه النهاردة أكتر من تمانين ألف تاكسى، كتير جدا طبعا . . تقدر تقولى نشتغل إزاى، والله ما أنا عارف؟

أنا : بس فعلا القرار ده غريب إن أى عربية ممكن تقلب تاكسى!!

السائق : القصة معروفة . . ولا غريبة ولا حاجة أما يطلعوا القرار ده إيه اللى ح يحصل؟

أنا : إيه ؟

السائق : زى ما قلنا عربيات بالهبل ح تقلب تاكسى . . والحكاية دى فيها سبوبة للحكومة ولناس كتير، يعنى فيها فلوس

بالعبط للمرور، كل عربية عشان تقلب تاكسى لازم تدفع للمرور رخص وخلافه والسواقين الجداد على العربيات دى عملوا رخص مهنية اللى برضه فيها فلوس كتير، وبعدين التاكسيات دى كلها لازم تشترى عدادات.

أنا : طب وبعدين؟

السائق : واحد من التقال قوى راح مدخل كمية كبيرة جدا من العدادات، وبقى هو فجأة محتكر كل العدادات اللى فى البلد . . وكل التاكسات الجديدة اشترت منه . . العداد نزل بالقسط معدى الألف جنيه . . شغل على كبير . . عمل فلوس بالعبط . . قرار على ورقة وحتة إمضاء صغيرة خلت واحد يكسب ملايين.

ومفيش وبعد كام سنة يقول لك التُكُسة كتير ومش عارفين ليه!! وممنوع التراخيص، والتُكُسة قديمة وحالتها وحشة ولازم نطلع قرارات جديدة تمنع كل العربيات اللى بقالها أكتر من عشرين سنة وكلام تانى اللى بقالها أكتر من عشر سنين . . كلام فى الأحلام يعنى عايزين بجرة قلم يقعدوا عشرات الآلاف فى بيوتهم . . إذا كان معظم التاكسيات فى البلد بقالها أكتر من عشر سنين . وكانوا فين دول لما طلعوا القرار بتاع قلب العربيات لتُكُسة ماهمه نفس الناس، لسه ماتغيروش.

والمصيبة إننا من ساعتها مش لاقيين زباين، الناس ما عندهاش فلوس تركب تاكسى، زباين التاكسى بيركبوا النهاردة

ميكروباص، وإحنا بقينا عايشين على العرب من الصيف للصيف، ودول راحوا كمان بعد تاكسى العاصمة اللى هو نازل علشانهم، الحكومة بصراحة بتعمل كل اللى فى إيديها عشان تحولنا إحنا كمان لشحاتين أو مجرمين، تحس إنهم بيبذلوا مجهود لخراب بيتنا، وخللى بالك إن السواقين فى مصر مش قليلين، إحنا حوالى ربع مليون، بس اللى مش عارفينه إنهم مش ح يقدروا عشان ربنا موجود وهو موزع الأرزاق، هو الرازق ولا رازق إلا هو.

عند هذه المرحلة من الحوار كان السائق قد وصل إلى مرحلة عالية من الانفعال، فوضع شريط كاسيت وبدأنا نستمع لآيات بينات من القرآن الكريم.

* * *

(٣٩)

كثيرا ما أركب مع سائقين لا يعرفون جيدا الطرق ولا يعرفون أسماء الشوارع.. لكن هذا السائق كان له الشرف أنه لا يعرف أى شارع على الإطلاق سوى الشارع الذى يسكن فيه بالطبع.. أذهلنى جهله المطبق بالقاهرة.. كأنه أعمى يسير لأول مرة فى قصر منيف..

أنا: إيه يا بنى.. إنت مش سواق ولا إيه؟

السائق: لا والله يا باشا مش سواق.

أنا: أمال بتشتغل إيه؟

السائق: مُهرب.

أنا: مُهرب!!

السائق: ودى فيها إيه.. دى كانت وصية المرحومة أمى.. قالت لى يا بنى الطريق البطّال هو اللى ممكن يأكلك عيش فى البلد دى.. وبعدين أنا مش بهرب حاجة غلط ومش بضر بلدى، بل بالعكس أنا بانفعها، يعنى حاجة تخللى الواحد يفتخر بنفسه.

أنا : إنت ح تسرح بىّ ؟

السائق : والنعمة الشريفة أنا مُهرب ، واللى حصل إن أبويا مات فجيت أدفنه ، وده التاكسى بتاعه شغال عليه لغاية أما أشوف حاعمل إيه فى حياتى .

أنا : وبتهرَّب إيه إن شاء الله؟!

السائق : أنا لسه صبى صغير . . بشتغل بقالى كام سنة مع معلمة فى السلوم . . إحنا وبعون الله بنهرب دخان من مصر على ليبيا . . يعنى بنشترى من مصر بما يرضى الله ونبيع فى ليبيا بما يرضى الله برضه . . مش قلت لك بنفيد البلد . . تقدر تقول عنى إنى واد وطنى .

أنا : يعنى إيه دخان؟ مخدرات يعنى؟

السائق : مخدرات إيه ؟ يعنى بذمتك واحد شغال فى المخدرات كنت ح تلاقيه يشتغل على تاكسى وطافح الكوته، ويعنى كنت ح أقول لك كده إنى مهرب !! شايفنى عبيط . . ولا شايفنى عبيط . . دخان . . يعنى سجاير . . علب سجاير مستوردة . .

أنا : إزاى يعنى . . بتعملوا إيه ؟

السائق : الحكاية بسيطة جدا ، فيه كام معلمة فى السلوم مشغّلين تحت إيديهم شنبات ، وإحنا صبيانهم . . شغلتنا إن إحنا

نشترى البازابورتات ، وإحنا وشطارتنا بعشرة جنيه بتناشر بالكتير بخمستاشر . .

أنا : يعنى إيه تشتروا الباسبورتات ؟

السائق : ماهو كل واحد من حقه إنه يشترى ست خراطيش سجاير من السوق الحرة . . نتفق إحنا مع أى واحد طالع ليبيا ، نشترى بجوازه الست خراطيش والست خراطيش كانوا يقطعوا حوالى ١٧٥ جنيه ، على العشرة جنيه بتاعة صاحب الجواز يبقوا مية خمسة وتمانين ، كنا نشترى فى اليوم بتاع متين جواز وبعدين نهرّبهم على ليبيا . . أصل جمرك «مساعد» سهل ، يعنى اللى جاى بعربية يتفتش إنما لو لقوا حد معدى كده على رجليه . . ممكن يعدى من غير مشاكل . . كنا نحط الخراطيش فى شنط قماش ونحطها على كتافنا وبعد ما نهربها ليبيا نبيعها هناك بحوالى اتنين وأربعين لخمسة وأربعين دينار ، والدينار ساعتها كان بخمسة إلا ربع يعنى الجواز يعمله حوالى عشرين جنيه مكسب . . فى الكمية نطلع بأربعة آلاف جنيه فى اليوم . . هى دى شغلانتى حضرتك . . شغلانة شريفة .

أنا : لكن أنا مش فاهم السجاير دى مش موجودة فى ليبيا ؟

السائق : دى أنواع مستوردة معينة فى السوق الحرة وبيحبها الشعب الليبى ، نقوله لأ ماتحبيهاش ، يعنى كله مستفيد . .

أنا : وإنتو بتهربوا السجاير بس ؟

السائق: لا . . ساعات كنا بندخل طيارى شوية أجهزة فيديو وكاسيت من ليبيا على مصر . . بس جمرك السلوم مش زى جمرك مساعد . . مابيرحموش، لو شافه شنطة ماشية لوحدها يقبضوا عليها . . بس إحنا برضه كنا بنتصرف . أصل أنا بقالى سنين هناك . أبويا طول عمره تاكسجى . . وكان عايز الله يرحمه يشغلنى على التاكسى . . أمى قالت لى أبوك ودّانا ورا وعيّشنا طول عمرنا طافحين الدم . . روح يا بنى اشتغل شغلانات الزمن ده . . الشغل اللى يجيب فلوس . . إنت مش شايف كل اللى حوالينا عاملين إزاى . . سافر . . اطلع على ليبيا احتمال ربنا يفتحها عليك . . بس وأنا طالع على ليبيا . . لقيت لك الشغلانة بتاعة تهريب الدخان دى . . قلت فرجت، وكنت بأبعت لأمى كل اللى بحوّشه، الحمد لله . . عيّشتها كام يوم حلوين قبل ما ربنا يفتكرها . . كانت أم عن حق، الله يرحمها .

أنا: وناوى تكِّن فى مصر على التاكسى بتاع الوالد؟

السائق: لا حضرتك . . ما أنا شفت بعينى ولا حدش قال لى أبويا عاش إزاى طول عمره . . وشفته يا عينى مات ما عندوش تمن الكفن . واللى جاى أوحش من اللى فات . . أنا بإذن الله حاشتغل أى شغلانة شريفة تجيب فلوس . . إنشا الله شيخ منسر .

* * *

(٤٠)

المكان: معرض القاهرة الدولى للكتاب بمدينة نصر .

الزمان: ٢٦ يناير ٢٠٠٥ .

الساعة: الثانية والربع بعد الظهيرة .

درجة الحرارة: معتدلة .

الحدث: برنامج تليفزيونى عن المشاركة السياسية وحوارات مسجلة مع الجماهير (ليست بالقطع على الهواء فالهواء خطر على الأجواء الديمقراطية) .

المنهج: يعطى المذيع أثناء الحوارات دروسًا فى الأخلاق الحميدة لحلاوة المشاركة السياسية للجمهور الغلبان، وإذا لزم الأمر يستعمل المذيع الشخط والنطر لإلزام كل ذى حد حده .

أثناء سيرى بجانب مكتبات الأزبكية، اقترب منّى شخص وعرفنى بنفسه، أنا مدير إنتاج برنامج تليفزيونى وبنصوّر هنا، وطلب منى أن يجرى المذيع حوارا معى، وأكد لى أن الست مراتى سوف تحترمنى أكثر عندما ترانى فى التليفزيون، أما أبنائى فسوف

يحكون لأصدقائهم فى المدرسة بكل فخر عما جرى لأبيهم داخل الشاشة الفضية أو حتى البرنزية .

ثبّتوا الميكروفون فى قميصى ، ووضع المصور الكاميرا أمامى ، ومن خلفه تجمعت مجموعة من الفتيات الصغيرات المنقبات بجانب حائط سراى ألمانيا وهن يتضاحكن من منظر فريق التصوير ، سرّح المذيع بعض الشعيرات المتبقية فوق رأسه ، واستعد لبدء التصوير ، ياللا ١ ، ٢ ، ٣ ، داير ، هاجمنى المذيع بسؤال عن البطاقة الانتخابية فحكيت له هذا الحوار مع سائق تاكسى :

أنا : طلّعت بطاقة انتخابية؟

السائق : يا نهار أسود ، إنت عايزنى أطلع بطاقة انتخابية؟ دول كانوا يراقبونى ، ولو ما اديتهومش صوتى ، يقبضوا علىَّ وأروح أنا فى طوكر[١] .

أنا : (ضاحكا) يراقبوك إيه وبتاع إيه ، إنت بتهرج مش كده؟

السائق : أنا بتكلم جد جدا ، مية فى المية لو طلعت بطاقة حيراقبونى ، وأبقى متسجل عندهم ، وتبقى مصيبة ، إنت اللى طيب ومش فاهم اللى بيحصل .

---

(١) تقع مدينة طوكر فى شرق السودان ، وكان يتم نقل المغضوب عليهم هناك ، فظهرت جملة «راح فى طوكر» .

ثم حكيت للمذيع عن محاولاتى لإقناع السائق بأن ما يقوله محض جنون ، وأن هذه الريبة من الدولة المتأصلة فى وجداننا يجب وأدها ، ولكن كلامى معه كان كلام فى الهواء شاشى ، لم يصدق منه حرفا ، بل بدأ يرتاب فىّ ، وأظن أنه تأكد فى النهاية أننى مخابرات .

أنهيت حوارى مع التليفزيونى اللامع بقولى إن هذا السائق أكد لى أن الحوار حول المشاركة السياسية فى مصر نكتة بايخة ، وبايخة قوى .

كنت أتمنى أن يفتخر بى أبنائى أمام أصدقائهم ، أو أن تزيد زوجتى من جرعة احترامها لى فور رؤيتى داخل المربع الذهبى ، ولكن يبدو أننى كنت مستطيلا وليس مربعا كما كان المفروض .

* * *

(٤١)

اكتشفت، بمجرد ركوبى السيارة إنها أقرب لزريبة البهائم منها لسيارة تاكسى، رائحتها نتنة والوسخ يحيط بى من كل جانب، أما التراب فحدث ولا حرج. وفوجئت بمجرد تحرك السيارة أن كل جزء منها يعمل بشكل مستقل تماما عن الأجزاء الأخرى.. وأن كل قطعة تطلق صريرا خاصا بها فى كونشرتو موسيقى بالغ الإزعاج.

نظرت إلى السائق، وجدت حالهُ ليس أفضل كثيراً من السيارة التى يركبها.

أنا: إيه اللى أنت راكبه ده؟

السائق: أعمل إيه.. صاحبها مش عايز يصلحها.. عنَّها ما اتصلحت، حيفضل يشغلها كده لغاية ما تبرك خالص..

كان السائق يتكلم مقلدا طريقة اللمبى فى الكلام[1].

---

(١) شخصية فى سلسلة أفلام كوميدية حققت نجاحًا جماهيريًا، وقام بدور هذه الشخصية الممثل محمد سعد.

السائق: وبعدين أنا لو جابولى كشك سجاير وتحتيه طارة حشغله تاكسى.. أنا سواق مايهمنيش..

أنا: طب يا سيدى حتاخد كام لغاية المعادى

السائق: اللى تدفعه

أنا: لا نتفق، إنت لسه ما مشيتش خطوتين.. اللى أوله شرط آخره نور.

السائق: يا سيدى مش حنختلف

أنا: طب وافرض اختلفنا.. حنقعد نتخانق هناك فى الشارع.. حتاخد كام؟

السائق: أنا مش عايز أقطع الرزق.. ده رزق وجاى لى من ربنا وإنت مجرد واسطة.. أقطعه إزاى بس.

أنا: يا سيدى أنا اللى حدفع. لو مش حتقول عايز كام، نزلنى.

السائق: افرض إنى قلت لك حاخد قد كده وإنت كنت ناوى تدفع لى أكتر؟ ده رزق يا أستاذ!

أنا: لما بتدخل أجزخانة وتسأل على سعر دواء، الصيدلى بيقول لك ستة جنيه وتمانين قرش ولا بيقولك اللى تدفعه؟ إنت الوحيد اللى لازم تكون عارف المشوار ده حيتكلف كام.

السائق: يعنى إنت مش عارف؟

أنا: لأ عارف.

السائق: طب يساوى كام؟

أنا: ١٥ جنيه.

السائق: طب ما تجيب عشرين.

أنا: (صارخا) نزلنى.

السائق: لأ خلاص ١٥ حلوين.. رُضا.. (ضحك السائق ملء شدقيه) طب تصدق بالله أنا كنت ح أقولك عشرة.. وإنت قلت ١٥.. يعنى لو سمعت كلامك كنت حاقطع رزقى.. أنا باقولك كده عشان تصدق إن الصح صح.. وإن السواق مفروض ما يقولش على أى سعر.. يسيبها كده على ربنا.

أنا: ولو كنت قلت خمسة.

السائق: لأ مش معقول.. وهو لامؤاخذة مشوار المعادى بخمسة برضه؟

واستمرت السيارة فى الحركة كل جزء منها يسير فى اتجاه واستمرت الآلات تعزف أسوأ سيمفونية فى التاريخ الإنسانى.

أنا: وأنت شفت فيلم اللمبى؟

السائق: لا والله ماشفتوش.. بس بيقولوا عليه حلو قوى..

هنا فقط اكتشفت أنه لم يكن يقلد محمد سعد فى فيلم اللمبى وأن محمد سعد هو الذى يقلده!

* * *

(٤٢)

السائق: إنت عارف أنا عندى حلم كبير.. حلم أنا عايش علشانه.. ماهو الواحد من غير حلم ما يقدرش يعيش.. يلاقى نفسه عنده وخم على طول، مش قادر يتحرك من على السرير، يكتئب، يبقى عايز يموت، إنما بالحلم تلاقى الواحد يتحرك رهوان، يبقى فرّيرة، نار قايدة ما تطفيش.. أنا ح فضل كده ولعة بلف وألف وأحوش فلوس لمدة أربع سنين..

إنت عارف حلمى إيه؟ إن أنا آخد التاكسى بتاعى بعد أربع سنين وأسوق لغاية جنوب أفريقيا وأحضر كاس العالم هناك. ح أحط القرش على القرش لمدة أربع سنين وأطلع أكتشف القارة الأفريقية من شمالها مطرح ما أنا دلوقتى لغاية جنوبها.. وأعدى على كل البلاد الأفريقية وح أمشى ورا النيل لغاية ما أجيب أوله، لغاية بحيرة فكتوريا يعنى وفى السكة ح أنام فى العربية وفى شنطة العربية ح أشون أكل يقضينى شهرين.. معلبات فول على تونة وكمية عيش بنت كلب.. أصل أنا بحب العيش قوى.

ح أتفرج على الغابات وعلى الأسود والنمور والقرود

والفيلة والغزلان . . وح أتعرَّف على ناس جديدة . . ناس من السودان ومن كل بلد بعد كده . . أنا لسه مش عارف ح أعدى على أنهى بلاد بالظبط . . اشتريت أطلس من المكتبة وبصيت عليه بس لسه ماحددتش الطريق بتاعى . .

ولما أوصل جنوب أفريقيا ح أروح آخر نقطة أرض فى القارة الأفريقية عند المحيط وح أبص بعينى عشان أشوف من بعيد القطب الجنوبى .

وطبعا ح أحضر كل الماتشات . . ناوى أقدم طلب هنا فى اتحاد الكورة . . اللى هنا جنب النادى الأهلى فى الزمالك . . علشان يجيبولى تذاكر . . وإحنا أفارقة زى بعض أكيد حيتوصوا بينا .

أنا أصلا باسوق طول النهار . . إنت عارف أنا باسوق حوالى ١٥ ساعة فى اليوم . . يعنى متعود . . مش حالاقى مشكلة إن أنا أوصل جنوب أفريقيا .

ده حلمى ولازم أنفذه . .

لم أرغب فى أن أقول له إنه لا يوجد طريق أسفلت يربط مدينة أبو سمبل آخر مدن مصر الجنوبية والسودان وإن الطريق الصاعد من طريق توشكى للسودان مغلق وإنه لا يوجد حتى خط سكة حديد متصل يربط مصر والسودان . وإنه حتى لو وصل إلى السودان فممنوع عليه أن يذهب إلى جنوب السودان إلا بتصاريح أمنية من سلطات الخرطوم لن يستطيع الحصول عليها .

وإن التاكسى القاهرى ممنوع من السفر .

نسيت أن أقول له إن قارتنا الإفريقية مجزأة ، مقطعة الأوصال ، مستعمرة بالكامل وإن الوحيد الذى ما زال يمكن أن يتحرك داخلها ليس بالتأكيد ابنها الإفريقى ولكن السيد الأبيض صانع الأبواب الإفريقية التى لا تنحنى ولا تفتح إلا له .

ورحم الله باب «على بابا» ، الذى (كان) يفتح فقط بالسمسم!

* * *

(٤٣)

كنت فى مدينة أساتذة الجامعة بصفط اللبن والتى تقع مباشرة خلف جامعة القاهرة بعد السكة الحديد، يعتبر المكان نموذجا مثاليا للسلطة العمرانية، فصفط اللبن قرية على تخومها أراض زراعية، ونتيجة لامتداد القاهرة المتوحش نزلت على القرية المسكينة بالباراشوت عمارات عالية من الطوب الأسمنتى مستوردة من المدن تجسد القبح العمرانى، وهبط عليها بشر ليسوا منها، وهبطت أيضا عليها مدينة أساتذة الجامعة من كوكب الزهرة وأحاطت نفسها بسور كبير كى تمنع أهل الأرض من دخولها.

وأثناء خروجى من تلك المدينة (بالطبع اسم مدينة لا يعنى أكثر من بضع عمارات متقاربة يسكنها أهالى كوكب الزهرة) إلى صفط اللبن وبعد تدقيقى المتأنى فى العمران وفى البشر اكتشفت هول الكارثة، فالمكان مسخ حقيقى لا يمكن معرفة هويته، ومرت من جانبى امرأة جميلة تلبس جلابية قروية ويتدلى من أذنيها قرط من المركز وأما أنفها المستطيل فهو خارج من المدينة وقدماها تقودها إلى سوق هو الأقذر فيما رأيت فى حياتى.

ومن خلف السوق بدأت تظهر جحافل من الأطفال يخرجون من المدارس، ظهر الفوج الأول من البنات فى المرحلة الابتدائية.. كلهن محجبات.. ثم ظهر فوج من الأولاد.. جميعهم يلبسون مرايل بنية حائلة اللون، اخترقونى من كل جانب وكأنى روح هائمة بلا جسد. شعرت بالتوتر رغم أن مرأى الأطفال يبعث فى العموم فى روحى البهجة.

ظهر لى تاكسى من المدينة، جريت نحوه كى ينتشلنى من هذه السلاطة بعد أن اتسخ وجهى من بعض الطماطم..

السائق: على فين إن شاء الله.

أنا: أى حتة.. بس خرّجنى من هنا.

السائق: أطلع ناحية الجامعة.

أنا: اطلع.

لم تتحرك السيارة كما كنت آمل، فالطريق مزدحم بعشرات سيارات الميكروباص التى تسير بدون لوحات معدنية ويقودها عفاريت الأسفلت، وشاهدت على يمينى طفل فى الخامسة يقترب من طفلة تكبره بقليل ويمسك يدها كى تساعده على اختراق الشارع المزدحم، وكان يبدو خائفا وجزء من مريلته البنية اللون مقطوع، وكانت تبدو واثقة فى أنها سوف تمر وسط السيارات مع هذا الطفل فى سلام.

شعرت أنا الآخر بسلام . . وخفّ توترى من السلاطة وقد بدأت أبتلع بعض خيارها .

أنا : شايف العيال حلوة إزاى .

السائق : حلوة صحيح . . لكن أهلهم مجانين .

أنا : إزاى يعنى ؟

السائق : مجانين إنهم يودوا عيالهم مدارس .

أنا : أمال عايزهم يودوهم فين ؟

السائق : العيال بيروحوا مدارس وما بيتعلموش أى حاجة . . ويفضل الأهل يكعوا دروس خصوصية فوق العشر سنين . . وينتهى المشوار أن الأهل ما حلتهُمش اللضى والعيال مش حيلاقوا أى شغلانة . . يعنى عبط فى عَبَط .

وبعدين تلاقى العيال دول زاحمين الشوارع على طول زى ما أنت شايف ، عيال رايحة المدارس وعيال راجعة من المدارس . . وبنزين وتلوث ووساخة ، دوشة فاضية .

أنا شخصيا ومعايا كام واحد من صحابى خرَّجْنا عيالنا من العَلام بعد الابتدائية . . فلوس الدروس بنحوشهالهم ، ييجى الواد أو البت وهما عندهم واحد وعشرين سنة ، نديهم كل الفلوس اللى كان المفروض نديها للمدرسين الخصوصيين . . بذمتك يا أستاذ آنى أحسن للعيل يبدأ حياته بشوية فلوس فى إيديه ولا بعلام مالوش أى معنى ؟؟ علام ما تعلمهوش أصلاً .

أنا شخصيا بأقول لكل اللى حواليا ، ماتودوش عيالكم المدارس . . ماتودوش عيالكم المدارس . . معتبرها قضيتى الوحيدة فى حياتى .

أنا : بس أنا أهلى صرفوا على تعليمى كل اللى معاهم وما سابوليش فلوس وقادر بالتعليم أشتغل وأعيش .

السائق : ده كان زمان . . الكلام ده كان فى الستينات النهاردة الشعار الوحيد «التجارة شطارة» ولمعلوماتك ، تسعة أعشار الرزق فى التجارة مش فى حاجة تانية . .

نسيب لولادنا فلوس يعملوا بها دكان صغير ولا كشك ولا يبقى معاهم مقدَم تاكسى . .

دلوقتى لا تعليم صناعى نافع ولا زراعى نافع ولا تجارى نافع . . وماتنساش إن العيال يا عينى بيتعشموا وبيفتكروا أنهم اتعلموا بحق وحقيقى . . وهما ما بيعرفوش يفكوا الخط . . الحاجة الوحيدة اللى بيتعلموها فى المدارس هى النشيد الوطنى ، حلو . . بس دى حتنفعهم فى إيه؟؟

* * *

(٤٤)

الجن والعفاريت والملائكة وإخواتنا اللى تحت موجودون، فهؤلاء يعيشون فى وجدان كل مصرى بشكل أو بآخر، فالحديث عن الجن ليس بالتأكيد خزعبلات فهو موجود فى ديننا وتاريخنا وفى حواديتنا، فى النهاية الجن معجون فى أرواحنا عجينة الفول المدشوش بالخضرة جوة الخلاط، ولكن رغم هذه العجنة القوية إلا أن الجن فى العموم لا يختلط بحياتنا اليومية ما عدا فى حالات غير مفهومة لعقولنا العاجزة، وعندما يقرر الظهور تكون الوكسة بمثل وكسة هذا السائق الذى كان يقلنى إلى مسجد السلطان حسن، وعندما سألنى أن أدعو له فى المسجد حكى لى حكايته.

السائق: حضرتك مش مصدقنى ليه؟ حضرتك برضه بتصدق الكلام اللى بيقولوه فى المدارس، ولاّ اللى بيقولوه فى الراديو وفى التليفزيون. ماتصدقش.. صدق كلام الناس.. الجن موجود معانا وعايش معانا. وأنا حظى الأغبر إنه ساكن فى الشقة اللى أنا إتجوزت فيها.

ده موضوع اتأكدنا منه بدل المرة ميت مرة.. حاولنا نطفشه بكل الوسائل مفيش فايدة.. أما إن إحنا نسيب الشقة ونروح شقة تانية، محتاجة لها مبلغ وقدره، مش أقل من أربع آلاف جنيه.. أنا معايا منهم حوالى أربعة جنيه..

مراتى من أسبوع قالت لى شوف يا بن الناس أول الشهر الجاى لو ما شفتش حل فى المصيبة اللى حلّت علينا دى.. أناح أهج من البيت المسكون ده. طب أشوف حل إزاى؟ ماهى بنت القحبة عارفة البير وغطاه.

أنا: وإنت عرفت منين إن البيت مسكون؟

السائق: يعنى إيه عرفنا منين؟ ده الموضوع واضح زى الشمس فى عز النهار.

أنا: مش فاهم ياريت توضح لى أكتر؟

السائق: أقول لسعادتك.. أول هام نصحى الصبح نلاقى رسومات على الحيطة، بنفس لون الحيطة ولكن فيه خط منشّع راسم الرسمة.. رسومات كتير ولكن فى الأغلب عيون.. عيون كبيرة وعيون صغيرة وبعدين على آخر النهار الرسومات تختفى. تانى هام البيت مليان أبراص، تعمل اللى تعمله تلاقى أبراص فى كل مكان، أبراص من كل شكل ولون، ألوان حضرتك ما شفتهاش قبل كده.. أنا مثلا إمبارح بالليل شفت برص كبير لونه بنفسجى غامق.. عمرك شفت برص بنفسجى؟ حاجات كتير..

يعنى أغرب حاجة حكاية التِّنِى دى . . ما بتعيش فى البيت أى نتاية . .

أنا : إزاى ؟

الساتق : إحنا بنربى عصافير . . نحط عصفورين دكر وعصفورتين نتاية . . نصحى الصبح نلاقى العصفورتين النتاية هربوا من القفص . . إزاى فتحوا القفص؟ وإزاى طاروا؟ ماتعرفش . طب لو القفص اتفتح الدكُرة ما هربوش ليه؟ ماتفهمش وبعدين دى ماحصلتش مرة . . لأ أكتر من مرة . .

وبعدين جبنا واحدة من اللى ليهم فى أمور الغيب ، أول ما دخلت علينا . . قالت البيت ده مسكون . . إحنا ماكناش إديناها أى فكرة . . عرفت على طول إن فيه جن عايش فى البيت . . وبعدين اللى زوِّد الطين بلة مع مراتى . . إن الشيخة قالت لنا إن الخلفة متأخرة عشان الموضوع ده . . وإن إحنا طول ما إحنا ساكنين فى البيت المسكون ده ، مش ح نخلف أبدا . . الكلام ده كان من شهر ومن يوميها ومراتى مش عاوزانى أقرّب منها ، بتقول لى وإيه الفايدة يا سبعى؟ وحلفت إن أنا مش ح أقرّب منها غير لما نسيب الخرارة المسكونة اللى عايشين فيها .

أنا : طيب والشيخة ما قلتش ليه الجن ساكن معاكم فى البيت ؟

الساتق : لا الشيخة قالت . . البيت ده أصله بيته ومش ح يخرج منه ولا بالطبل البلدى . . دى حتى رفضت تاخد فلوس ،

حتى الشاى ما شربتوش . . قالت لمراتى إبقى قصى ضوافرك علشان العفاريت بتطلع منها ، وبعدين وشوشت مراتى فى ودانها وراحت ماشية . . ومراتى راسها وألف جزمة مش عايزة تقوللى قالت لها إيه .

أنا : معقول الكلام ده ؟!

الساتق : كل اللى باحكيهولك ده ومش مصدقنى . . باقولك نام ونصحى نلاقى رسمة عين كبيرة على الحيطة . . مين بقى اللى رسمها . . أمى اللى رسمتها؟ الجن موجود وماتخليش العلام يبوظ مخك واحمد ربنا إن بيتك مش مسكون .

أنا : الحمد لله .

* * *

(٤٥)

شوارع القاهرة قبل صلاة الجمعة بحوالى الساعة تكون شبه خالية . . كنت متوجها فى ذلك التوقيت الرائع إلى مدينة الرحاب لزيارة صديق، واختار التاكسى أن يذهب عن طريق صلاح سالم مرورا بميدان عابدين، وعند ناصية الميدان مرت فجأة كرة قدم من أمام سيارة التاكسى وانشقت الأرض عن شاب يجرى وراء الكرة دون أن يرى فى الدنيا سواها، فصدمناه . . طار الشاب بفعل الصدمة ثلاثة أمتار على الأقل . . ثم أكمل جريه وراء الكرة وكأن شيئا لم يحدث . .

طلبت من السائق التوقف للتأكد من سلامة الشاب، ولكن السائق رفض وأكمل سيره مسرعًا .

السائق : ما أنت شايفه بيجرى زى الجن أهه .

أنا : كان لازم ناخده المستشفى . . ممكن يبقى مش حاسس دلوقتى باللى حصل له . .

السائق : يعنى لو كان حصل له حاجة كان ح يجرى زى الغزال الشارد كده . . كانت خبطة خفيفة وربنا سلّمْ . . وبعدين لو رحنا

المستشفى فيها سين وجيم ومش ح نخلص . . دول ما بيصدقوا يعملوا فيها القلب الرحيم، والمصيبة إن هما هما اللى بيطلعوا عينينا فى كل حاجة، البنى آدم بالنسبة لهم مالوش أى تمن . . ولا حتى نكلة . . إنت ما شفتش اللى حصل فى العبّارة، الناس ماتت بالزوفة . . والحكومة واقفة تشجع .

الجنازة حارة والميت كلب ولا مؤاخذة . .

أنت عارف أنا بشبه البنى آدم بإيه فى نظر الحكومة؟ . .

أنا : لأ .

السائق : البنى آدم فى مصر زى التراب فى كاس مشرّخ . الكاس سهل يتكسر، والتراب ح يطير فى الهوا . . لا يمكن تعرف تلمه ومالوش عوزة أصلا إنك تلمه . . لأنه شوية تراب وطار، البنى آدم فى البلد دى شوية تراب طايرة، مالهاش سعر .

إنت عارف الناس اللى ماتت فى العبارة، كتير منهم مش عارفين يطلعولهم شهادات وفاة لغاية دلوقتى، أوراقهم الرسمية يا عينى غرقت معاهم . . عك فى عك، البلد دى حرام والله . . حتى الفلوس اللى قالوا حيدوهالهم . . فيه كتير ماخدوش منها حاجة . . قالوا الميت حياخد ستة وستين ألف جنيه وجت تبرعات من كل حتة، من الخليج ومن رجال أعمال يطلع للواحد مش أقل من خمسين ألف جنيه . . راحت فين الفلوس دى؟ ماحدش عارف . والأهالى يا عينى ولادهم راحوا وحتى الفلوس مش

عارفين ياخدوها . . وصاحب العبارة هرب طبعا كالمعتاد على برة .

إنت حضرتك عارف كمان إن فيه أربعة وعشرين واحد من طاقم العبّارة هربوا وماحدش عارف لهم طريق جرة . . بيقولوا صاحب العبارة هرّبهم عشان ما يقولوش أسرار توديه فى داهية . . وعشان شركة التأمين تدفع الفلوس . . عشان لو دول اعترفوا باللى حصل . . شركة التامين مش ح تدفع حاجة . . مصايب كتير . . وسمعت إشاعة والله أعلم، ما أنا أحب قوى أقول والله أعلم ما أنا بسمع الكلام ده من ناس وما أعرفش الصدق فين والكدب فين .

أنا : سمعت إيه ؟

السائق : إن العبّارة كان عليها خمسميت راكب زيادة عن الحمولة بتاعتها . . بس ماحدش عايز يقول . . طبعا اللى هربوا دول عارفين كل الحاجات دى . .

أنا : وإنت عرفت المعلومات دى منين؟

السائق : ماهو فيه واحد بلدياتى فقد ابنه يا عينى فى الحدوتة دى . . ابنه كان شغال عامل بناء فى السعودية ، واهه محتاس حوسة من سفاجا لهنا . . لهنا . . وحكى لنا اللى حصل فى سفاجا، كانت هرجة وبلطجة ووجع قلب ماحدش واخد حقه فى البلد دى .

والراجل أخرتها ماطلش حاجة وعمال يدعى على الحكومة وعلى صاحب العبّارة وعلى الدنيا الوسخة .

وبعدين حضرتك تعالى شوف فى الآخر مين اللى مات فى العبارة؟ العمالة الكادحة اللى رايحة السعودية تتهان علشان القرش اللى بيطلع بالدم . . الطيران غالى عليهم فبيسترخصوا ويركبوا العبارة . . شوية عمال غلابة يعنى . . أصل المصايب ما بتقعش الأيام دى غير على الغلابة، بتنقيهم واحد واحد . . والدور والباقى علينا . . وبعد كل ده عايزنى أروح المستشفى برجلىَّ .

* * *

(٤٦)

السائق : سمعت على حكاية لعِّيب الاتحاد؟

. . . .

السائق : أيوه الاتحاد السكندرى هو فيه غيره . .

كان الاتحاد مسافر يلعب ماتش فى البطولة الأفريقية وفى المطار اكتشفوا إن لعِّيب مزور باسبوره، قبضوا عليه . . وبقية الفريق سافر . أنا بقالى أربعين سنة باسمع أخبار، أول مرة أسمع عن لعِّيب ضارب باسبور بحاله . . يضرب فيزا . . ختم . . إنما كل الباسبور . . حاجة غريبة والله . .

ومن كام يوم حكاية المغنى اللى اسمه تامر حسنى زور شهادة الجيش عشان يطلّع باسبور ووراه على طول المغنى اللى اسمه هيثم[1] . . راح مزور هو راخر شهادة الجيش عشان يسافر . .

---

(١) لست متتبعًا لمَ حدث للمطربين تامر حسنى وهيثم فأنا لا أقرأ أى أخبار فنية، ولكن ما أريد قوله هنا إن الحكم القضائى النهائى هو المعيار الوحيد لاتهام إنسان، والمتهم برىء حتى تثبت إدانته من المحكمة، وإذا لم يصدر ضدهما أى أحكام نهائية فهما إذن بريئان من اتهام التزوير.

وطلعوا فعلا باسبورات بالشهادات المزورة . . بس تامر مشكلته أكبر . .

أنا : ليه ؟

السائق : أصلهم اكتشفوا فى أوراقه إنه مزور كمان شهادة جامعة . . راجل باين عليه محترف والمصيبة إنه نجم كبير وأفلامه مكسرة الدنيا . . عمرك سمعت إن محمد فوزى ولا عبد الحليم زوروا باسبور . . ومين اللى ح يدافع عنهم الراجل اللى كان ماسك الزمالك .

وكمان المطربة شيرين[1] زورت فى البطاقة وقالت إنها آنسة مع إنها مطلقة . . وغيره كتير ، التزوير فى مصر بقى عامل زى شرب الشاى . واللى مستخبى أكتر قوى . . ده أنا ركب معايا واحد قال لى إن ممثلات كتير قوى بيزوروا فى تواريخ ميلادهم عشان لما يتجوزوا عرب من الخليج والسعودية يبانوا لسه وراور . أهه كده يبقى تزوير يجيب ريالات على طول . يعنى دعارة رسمى بعقود مسجلة . تعرف حضرتك المشكلة جت منين؟

أنا : منين ؟

السائق : المشكلة جت إن كل واحد معاه قرشين حاسس إنه

---

(١) لا أعرف المطربة شيرين وكنت أول مرة أسمع اسمها، ولست أعرف حتى الآن إذا كانت شخصية حقيقية أم من وحى خيال السائق، وإذا كانت شخصية حقيقية، فالعبرة الوحيدة هى بالحكم القضائى النهائى وهى بريئة من كافة التهم حتى يصدر الحكم القضائى بشأنها.

ممكن يعمل أى حاجة بفلوسه . . هيبة الدولة راحت ، بالفلوس أجيب مناخير الحكومة الأرض . أزور باسبور ، أغير بيانات بطاقة أى حاجة ، رخصة تتسحب تجيلى فورا ولغاية بيتى بالفلوس .

كل حاجة مفروشة على الفرشة ومعروضة للبيع . . وكل ما واحد يقع تلاقيه هرب برة مصر . . إزاى؟ بالفلوس . الشهر ده ممدوح إسماعيل هرب ، إيهاب طلعت هرب[1] . . وغيرهم ومفيش داعى نتكلم على الشهور اللى فاتت واللى فاتت .

وبعدين يروحوا للعيال فى المدارس يعلموهم إن القيم أهم من الفلوس ويحفّظوهم أبيات شعر عن المبادئ وإن الفلوس بتروح وتيجى وإنما الأخلاق هى الأمم وهى أساس البنى آدم . . كلام بيدخل فى ودانهم من هنا وبيخرج من هنا ، ما هما شايفين إيه اللى بيحصل حواليهم . .

أنا بنتى لسه صغيرة عندها ستاشر سنة ، ده على أيامنا كان سن الحب والآهات ونقعد نسمع أم كلثوم ، بنت الكلب بتقول لى حب إيه وزفت إيه . أنا عايزة أتجوز واحد غنى ، بحبه ولا مابحبوش مايهمش . المهم يبقى غنى . أقول لها إن مفيش أحلى من الحب فى الدنيا دى . الحب هو اللى بيخلينا نعيش ، هو النفس اللى بنتنفسه هو اللى مخلينى مستحمل أمك . . تقول لى فى الدنيا دى مفيش أحلى من الفلوس .

---

(١) لم تصدر أحكام قضائية نهائية ضد ممدوح إسماعيل وإيهاب طلعت ، وبالتالى فهما بريئان من أى تهم تلصق بهما .

(٤٧)

عند دخولى التاكسى ، فوجئت أن الرجل الجالس أمامى بجانب السائق يبكى فى صمت . كان عملاقًا أسمر بشوارب كثيفة . وكان الهدوء هو الآخر كثيفاً كشاربه والليل فى ساعاته الأخيرة ، وكان الصوت الوحيد صادراً من ترددات التنفس غير المنتظمة للعملاق الباكى .

أن ترى رجلا فى مجتمعنا يبكى هو أمر نادر الحدوث ، وأن ترى عملاقًا صعيديا يبكى هو أمر يمكن تسجيله فى موسوعة جينيس للأحداث النادرة .

استمر الصمت فترة من الزمن ، ثم استكملا الحديث ونقلا لى حالة توتر من الذبذبات المشحونة بالتيارات الكهربائية الدائرة بينهما .

كان صوت العملاق منكسراً وصوت السائق مليئا بالأسى ، دار بينهما حوار كله شجون . بدأت تتجمع فى ذهنى القصة تدريجيا كقطع البازل PUZZLE ، ولم تتضح لى الصورة كاملة إلا بعد عودتى إلى المنزل .

العملاق سائق تاكسى من الإسكندرية جاء إلى أخوه السائق - اليوم نفسه - لكى يقترض منه مالا، ولكن «إيش ياخد الريح من البلاط» كما ردّ عليه أخوه.

أجرى العملاق ثلاث عمليات جراحية خلال السنوات السابقة فى عموده الفقرى بعد تاريخ طويل فى قيادة سيارات الأجرة، وكانت آخر عملية منذ أربعة أشهر.. وأمره الطبيب بعدم القيادة وإلا سوف يحدث لعموده الفقرى ما لا يحمد عقباه، وخلال الأشهر الأربعة باع العملاق كل ما يملك واقترض من كل من حوله حتى خروجه من المستشفى وبداية رحلته الطويلة مع العلاج الطبيعى.. شرح بالتفصيل الآلام غير المحتملة للظهر ولكن كرامته لم تسمح له بالصراخ خاصة أمام زوجته وأطفاله.. وعندما سُدت أمامه كل سبل الرزق.. اضطرت زوجته للعمل خادمة عند راقصة معتزلة تفوق فى بخلها الأب جراندى فى رواية أوجينى جراندى[1] لصديقى أونوريه دو بلزاك[2]، بعد أن كان قد حلف بالأيمان المغلظة أنها لا يمكن أن تعمل وهو على قيد الحياة.

وعليه اليوم أن يسدد شيكا بمبلغ ألف جنيه كان قد اقترضه قبل العملية. وإذا لم يُعد المبلغ، فالسجن أبوابه واسعة. ومن يمكن أن يلجأ إليه فى الدنَيا سوى أخيه؟

---

(١) أوجينى جراندى: رواية لبلزاك، نشرها عام ١٨٣٣.

(٢) أونوريه دو بلزاك: ١٧٩٩ - ١٨٥٠، روائى فرنسى.

أما الأخ فقد أجرى هو الآخر نفس العملية منذ فترة، ولكنه على الأقل ما زال يعمل سائقا. ولكن المشكلة تكمن فى أن الغول والعنقاء والخل الوفى أقرب إليه من مبلغ الألف جنيه، وأنه فى بدايات أقساط الثلاجة التى التهم مقدمها ما كان يدخره لتجديد رخصته المهنية.. وأنه لو باع زوجته فلن تأتى بهذا المبلغ..

كان حواراً هادئًا بين أخين، بدا لى أن الحب والإفلاس يجمعهما، كان حوارهما كارثيًا لدرجة ميلودرامية، يكاد يصل إلى الأفلام الهندية، ولم يكن ينقصنى وأنا المتفرج غير بعض الأغانى والرقصات الهندية، ولا مانع من بكائية لأميتاب باتشان.

لم يشعرا طوال الحوار بوجودى وكأننى بالفعل لست موجوداً أو ربما كنت لابساً طاقية الإخفاء.. فحتى نزولى ودفعى للأجرة لم يلتفت لى أحد ولم توجه لى كلمة.

كان الاثنان فى صلاة.. كل يناجى الآخر، وكلاهما وجها وجهيهما للسماء عسى أن تفتح طاقة فيها وتصل توسلاتهما إلى السميع المجيب.

* * *

(٤٨)

التغريد الأول:

السائق: أنا عامل زى السمكة والتاكسى عامل زى حوض السمك . . السمكة عمّالة : تروح وتيجى وحوض السمك سجن صغير . تخبط فى قزاز العربية الناحية دى وبعد كده تخبط فى القزاز الناحية التانية .

أنا برضه بافرد دراعى أخبط فى القزاز الناحية دى وأفرد دراعى التانى أخبط فى القزاز الناحية التانية ، أنا صحيح بلف طول النهار لكن ما باشوفش غير جوه التاكسى بس ، حدودى هى الشبابيك بتاعة عربيتى .

سجن مؤبد ونهايته القبر . .

التغريد الثانى:

ضهرى اتيبّس على وضع القعدة دى . . أمّا باجى أفرد جسمى بالليل ما بعرفش . . ضهرى بيوجعنى أمّا بفرده . .

والعربية قديمة ومخرمة من كل حتة والسخونية بتاعة الموتور بتطلع على رجلى وعلى جسمى فى الصيف . . ببقى عامل زى الكبابجى قدّام أسياخ الكفتة . . الفرق إنه بيشم ريحة لحمة حلوة وأنا باشم ريحة بنزين محروق .

* * *

(٤٩)

كنت فى العتبة رايح الهرم . . قلت أركب المترو للجيزة . . وأطلع من الجيزة آخد تاكسى للهرم . . الدنيا كانت حر جدا كنا فى يوليو، وكنت لقيت فى مكتبات الأزبكية «سور الأزبكية سابقا» مكتبة مكتبة، علشان أشترى كتاب عن الصناعات فى مصر الفرعونية عشان أجيبه هدية لمراتى وما لقيتوش، نزلت المحطة لقيت يافطة كبيرة مكتوب عليها «مترو الأنفاق هدية مبارك لشعبه» فعلا هدية لطيفة جدا . . وأنا اللى جاى لغاية الأزبكية عشان أوفر قرشين . . يا ترى مبارك لقى المترو ده بكام؟ وفى أى سوق من أسواق فرنسا عشان يشتريه ويجيبه لشعبه؟

حاجة تغيظ . . الحكومة عمالة تتكلم طول السنة عن التعددية والديمقراطية السياسية، وأول انتخابات رئاسية متعددة، وفى نفس الوقت واحد ماعرفش مين فى المترو يكتب لنا إن الرئيس يمتلك أموال الدولة ويصرف منها هدايا لمجموعة تابعة لسيادته اسمها شعبه . . تناقضات تنقط، لازم نبلبع حبوب البلاهة علشان نقبل كل اللى بيقولوه لنا .

انترفزت فعلا من اليافطة دى، خاصة إن أنا كنت لسه شايف يافطة قبلها بيوم مكتوب عليها :

«نعم يا شريف يا مبارك، نعم يا سيد يا شريف يا محمد يا حسنى يا مبارك . . ياللى تأييدك من الله رب العالمين وسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يا بن أطهر نسب جدك على بن أبى طالب وجدتك فاطمة الزهراء البتول وجدك مولانا الحسين . . إلخ» .

دخلنا فى الخزعبلات .

خرجت من الجيزة وركبت تاكسى واللافتات حوالينا من كل جانب بتقول نعم للاستفتاء عشان نغير الدستور وتبقى تعددية، و(فى نفس الوقت) نعم لمبارك . . الناس فعلا متلخبطة ومش قادرين حتى يقولوا نعم لتعديل الدستور وبس، خايفين يا عينى . ومفيش، مشينا شوية ولقيت يافطة مكتوب عليها «الجنين فى بطن أمه . . بيقول نعم لمبارك» .

أنا : إيه رأيك يا عم فى كل اليفط دى ؟

السائق : لا أحلى واحدة شفتها مكتوب عليها «نعم بالإجماع لمحمد حسنى مبارك وابن مبارك وابن ابن مبارك» .

أنا : وتبقى ملكية جمهورية بالطعمية وإنت إيه رأيك؟

السائق : هو مبارك ماله ومال اليفط دى، ده الناس اللى

معلقينها، أنا بصراحة رأيى إن مبارك عدآه العيب.. الراجل بيعمل كل اللى يقدر عليه.. فعلا مالى مركزه.. وبعدين مين يقبل إنه يدخل انتخابات مع شوية ناس مايشتريهمش بتلاتة أبيض.. هو رئيس الجمهورية بقاله داخل على الربع قرن.. وقبلها كان نائب رئيس الجمهورية.. يعنى راجل فاهم تمام منصبه ومجربه وماليه.. عشان خاطر الديمقراطية يقبل ينزل انتخابات مع ناس ماعندهاش خبرة.. والله ما حد يعملها.. يعنى السادات مثلا كان يرضى يعمل كده.. مش ممكن.. ومين اللى فكر فى الفكرة دى.. ما هو برضه حسنى مبارك، إنت عارف حضرتك الراجل ده عظمته منين؟

أنا: منين؟

السائق: إنه أصلا طيار، الطيار لازم يبقى ذكى ومصحصح على طول ومركز جدا.. أى غفوة.. موت على طول.. مافيش فرصة للغلط.. علشان كده مبارك مية مية.. مركز على طول وفاهم عايز يعمل إيه.. ده كفاية اللى عمله فى القاهرة.. كبارى إيه وأنفاق إيه. حاجة عظيمة.. إنت عارف إننا فى التمانينات كانت الشوارع مقفلة أكتر من دلوقتى، وشوف بقى فيه كام عربية زادت عن ساعتها.. الراجل عامل شغل عظيم.. وبعد كل ده يقبل ينزل انتخابات مع ناس أى كلام.. والله فيه الخير..

أنا: بس أنا اتغظت منه النهاردة لما لقيت يافطة فى المترو بتقول إن المترو هدية مبارك لشعبه.

السائق: طب هى دى فيها إيه!!.. ما هو المترو ده فكرة مبارك برضه ده شال من على الناس هم كبير قوى فى المواصلات.. إنت عارف إن أكتر من مليون واحد بيركبوا المترو كل يوم.. مش بأقولك مبارك ده مفيش زيه.. سيادتك قلت لى رايح فين؟

❊ ❊ ❊

(٥٠)

سألنى السائق : مستعجل، أنا لازم أحط غاز ، فأجبت بالنفى . ولكننى لم أكن أتوقع على الإطلاق هذا الطابور الذى لا ينتهى من السيارات فى محطة الغاز ، لم تكن هناك أى سيارة ملاكى فى الانتظار ، سيارات تاكسى فقط من كل شكل ونوع ، وكان الطابور ممتداً كثعبان أرقط أسود فى أبيض يبدأ من محطة الوقود وينتهى عندنا فى الشارع ، على مسافة خمسين متراً على الأقل من المحطة . .

أما عن حركة الطابور فحَدِّث عن البطء ولا حرج .

أنا : إيه حكاية الغاز دى؟

السائق : الغاز أرخص قوى من البنزين . بيقف بحوالى نص سعر البنزين . . معانا إحنا فى التاكس بيوفر جامد ، إحنا بنمشى على الأقل مية وخمسين كيلو فى اليوم . . وعربية ٥٠٤ زى بتاعتى بتاكل بنزين جامد . . فَرَق معايا قوى .

أنا : بس أنا سمعت إن التركيب بآلاف!

السائق : لا ما هو كله قسط . . كل ما بتموّن بتدفع مبلغ صغير زيادة لغاية أمّا بتلاقى نفسك مخلص المبلغ كله . . أنا شخصيا اشتريته مستعمل من تاكسى تانى . . كان صاحبه طالع يشتغل فى الإمارات . . وقف علىّ بتسعميت جنيه كاش .

لم يكن الطابور قد تحرك كثيراً ووجدنا أن السائقين مجتمعون على جانب المحطة ، تاركين سيارتهم ، منتظرين أن تموّن السيارات داخل المحطة لكى يتقدموا بالطابور . نزلنا ـ أنا والسائق ـ لننضم لبقية السائقين . . كانوا فى حالة ضحك جماعى متصل .

أحد السائقين : بمناسبة أطنان الفياجرا اللى قفشوها فى الميناء فى شحنة السيراميك ح تسمعوا الإعلان ده بكرة فى الراديو : سيراميك بالفياجرا علشان الستات تخللى الرجالة تلحس البلاط .

يقهقه الجميع ويرد الآخر سريعًا .

أحد السائقين : مقادير استخدام الفياجرا .

ـ مع بت أول مرة تشوفها . . مش محتاج .

ـ مع حبيبتك . . نص حباية .

ـ مع عشيقتك . . حباية .

ـ مع مراتك . . ٦ حبايات وعشرة بيرة وتلاتة ويسكى

وسيجارتين حشيش وصاروخ بانجو وربنا يسهل . . يانفع . . ياماينفعش!

تنطلق الضحكات إلى عنان السماء ويرد أحدهم مسرعا قبل أن يسبقه آخر .

أحد السائقين : صعيدى مات أبوه راح واخد حبة فياجرا، قالوا له بتعمل إيه يا مجنون، قال لهم أنا فى الظرف الصعب ده محتاج حد يقف معايا .

يرد أحد السائقين : سواق تاكسى بياخد فياجرا كتير كتب على سوستة بنطلونه : «احذر وقوف متكرر» .

ينفجر السائق الذى يقف بجانبى فى ضحك هستيرى، فينظر له الجميع ويلحقه أحدهم بنكتة جديدة .

أحد السائقين : سواق تاكسى زهق من مراته كتب إعلان قال فيه للبدَل زوجة بحالة جيدة . . دواخل فابريكة . . صدر كهربا . . وراك تيوبليس . . عاملة عشر آلاف . . ومرفوعة خمس سنين .

يقع السائق الضاحك على الأرض من كثرة الضحك، يقفز فوقه آخر ويمسك شعره ويصرخ فى وجهه : امسك أعصابك، ثم يقفان وهما يضحكان . . يتحرك مجموعة من السائقين ليتقدموا بسياراتهم فى اتجاه المحطة .

ويستكمل آخر سلسلة النكت . .

أحد السائقين : عارفين إيه أحسن هدية تجيبوها للمدام ؟ تذكرة على عبَّارة السلام .

طيب عارفين نظرية الجواز :

قبل الجواز أنت تتكلم وهى تسمع . .

وبعد الجواز هى تتكلم وأنت تسمع . .

وبعد تلات سنين من الجواز أنت وهى تتكلموا وأمة لا إله إلا الله تسمع .

تنطلق ضحكات هستيرية وتنضم إلينا دفعة جديدة من السائقين تاركين سياراتهم فى الطابور ويبدأ أحدهم فى إلقاء نكتة .

أحد السائقين : طب عرفتوا الأخبار بعد ميت سنة . . حسام حسن ح يستلم كاس أفريقيا من الرئيس لؤى هيثم جمال مبارك . . وشارون حالته ح تتحسن . .

قهقه الجميع وجاء دورنا لتحريك السيارة للتموين، ونحن فى طريقنا للسيارة سمعت أحدهم يقول اسمعوا دى نكتة مصرية جداً : قرد فى غابة لقى النمور بتجرى ووراهم حمار عمال يجرى فسأله إنت بتجرى ليه؟ قال له بيقولوا حيقبضوا على النمور، القرد قال له طب وإنت مالك؟ رد الحمار : حللنى بقة عقبال ما أثبت إنى مش نمر .

ضحكت من قلبى وشكرت السائق على هذه العَطَلة، إذ إنى لم أشارك فى حالة ضحك جماعى منذ فترة طويلة.. طويلة جداً..

وقررت أنه كلما ضاقت بى السبل سوف آتى إلى تلك المحطة وأشارك سائقى التاكسى ضحكاتهم العالية، المجوفة، الفارغة، الخارجة من المعدة وليست بالتأكيد من القلب.

* * *

(٥١)

السائق: طب ح ناكل إيه؟ والله ما أنا عارف.. اللحمة نار ومش بس نار ده فيها كمان الحُمة القلاعية، والسمك نارين، كانت الفراخ هى اللى معيشانا وبنطبخ على مرقتها.. أنا بصراحة مش عارف ناكل إيه؟

أنا: بيقولوا سوى الفراخ كويس على النار وفيروس إنفلونزا الطيور يموت.

السائق: يا روح ما بعدك روح.. ح يموت إيه وأنا إيش ضمّنى، أصل حضرتك ما تتصورش إحنا عندنا إيه اللى حصل، مصيبة، أنا ساكن فى سجن يوسف عند سقارة.. وإحنا أول منطقة فى مصر كلها تهاجمها أنفلونزا الطيور قبل الهوجة.. عندنا أكتر من مزرعة دواجن.. مات منها آلاف. اتصلنا بالحكومة.. كانت الظاهر لسه ما استعدتش فقالوا لنا مانقدرش نعمل لكم حاجة.. احرقوها.. والله ده اللى حصل بالظبط.

أنا: وحرقتوها؟

السائق : طبعا البهايم عندنا بدل ما يحرقوها أو يدفنوها راحوا واخدين كل الفراخ الميتة وراميينها فى الترعة . . غباء والله ما شفتش قبله ولا بعده . . بس ده اللى حصل، قال لك لسه ح نحرق ولا لسه ح نحفر وندفن بلا وجع دماغ . .

وطلع بعدها الكلام إن الميـاه ملوثة ولو شربناح نموت بالأنفلونزا . . ما أنت عارف بلد شائعات والناس جبانة وطبعا أنا أولهم .

وطول ما أنت ماشى عندنا تلاقى ريش الفراخ فى كل حتة، أصل لمّا جم يرموها الهواء طيّر الريش . . وبعد كده قال لك الريش خطر . . بس ربنا سلم ماحدش جات له أنفلونزا الطيور من نواحينا . .

أنا : ربنا يستر .

السائق : طب سمعت لو حدّ جات له أنفلونزا الطيور ح يحس بإيه .

أنا : بإيه؟

السائق : أولا ح يحس إنه فرخة قدام مراته، وفى أوضة النوم ح يحس إنه مكسور الجناح . . (يضحك) بس المصيبة إن الواحد كده من غير أنفلونزا الطيور .

أى والله!

* * *

(٥٢)

بلم بلم بلم، بلم بلم، . . . . . . ، ثم نظر السائق للخلف ليركز بصره فى وجهى .

السائق : إنت باين عليك راجل ابن حلال .

أنا : يا عم الله يخليك .

السائق : كل الكلام اللى قلتهولك كان فى الأونطة ولا مؤاخذة، لكن أنا ح أكلمك بصراحة عشان تبقى معايا فى الصورة، أنا لو قدرت دلوقتى أقتلك وآخد اللى معاك، ح أعملها على طول، ولو اتقبض علىّ . . مش فارقة معايا كتير، على الأقل فى السجن ح ألاقى حد يأكلنى .

لم أعرف ماذا أقول له .

السائق : والله والله أنا عايش زى اللى ميت . لأ، ده الميت أحسن منّى بكتير، أنا باشتغل ورديتين وآخر الشهر بابقى مديون بييجى ميت جنيه، والله يا باشا التور عايش أحسن مننا ألف مرة .

كان السائق شابا فى حوالى الخامسة والعشرين أو أقل قليلا من ذلك، أكمل حديثه مندفعا: حضرتك عارف العيال اللى فجرت نفسها فى الحسين وفى التحرير دول، العيال دى مية مية، إوعى تصدق إنهم إرهابيين، دول شويّة عيال غلابة شافت المسألة رايحة فين، يعنى شافت الليلة صح، وعرفوا إن الموت أحسن بكتير قوى من الحياة بنت القحبة اللى عايشينها دى.

أنا: (محاولا تهدئته) مش للدرجة دى!

السائق: مش للدرجة دى، هيء هيء، إنت عارف لو الانتحار مش حرام، كل اللى عارفهم كان زمانهم انتحروا من زمان، العيال دى عملت حاجة صح، عايزين يضربوا عصفورين بحجر، قتلوا نفسهم وقالوا ندخل الجنة كمان، مش مهم بقه أى حاجة تانية، قصة جماعة وإسلام وجو، كل ده هتش.

بعد صمت قليل زعق فى وجهى السائق: دول عيال بؤساء، ده حتى يا عينى، القنبلة مش عارفين يعملوها، فيها شوية مسامير من عند بتاع البويات باتنين تلاتة جنيه، جماعة إيه دى اللى مش عارفين يا عينى يعملوا أى حاجة.

أنا: لأ عارفين يعملوا، بيدمروا الاقتصاد المصرى.

السائق: (ناظرا لى بقرف) اقتصاد إيه يا باشا.. إحنا فى مَجْوَعة (يقصد مجاعة) وصلنا للحديدة من زمان، مفيش حاجة تحتيها، وبعدين الناس ما بتعملش حاجة فى البلد دى غير إنها بتسرق من بعضها، هو ده الاقتصاد.

أنا: أنا هنا على اليمين.

السائق: (بعد أن توقف بسيارته) ما تعرفش بيعملوا فجورة المسامير دى إزاى؟ أنا بينى وبينك عايز أنزل المحطة من هنا وأدخل الجنة عدل.

نزلت مسرعا من التاكسى فلفحت وجهى موجة ساخنة من هواء الشارع الملوث.

* * *

(٥٣)

أنا : مش ناوى تنتخب نفسك بعد تعديل الدستور وتبقى رئيس الجمهورية؟ تلاقيك عارف نص البلد من اللف فيها طول النهار .

يضحك السائق ضحكة من ناء تحت أحمال البشرية وأحمال الستين عاما التى يبدو من تجاعيد وجهه أنه تخطاها .

أنا : طيب ناوى تنتخب حسنى مبارك .

السائق : (بجدية) هو ما بيحبنيش . . أحبه أنا ليه؟

أنا : ما بيحبكش ليه؟

السائق : (ناظرا لى) إنت معاك مليون جنيه؟

أنا : (فى استغراب شديد) لأ .

السائق : يبقى ما بيحبكش إنت كمان ، الراجل ده بيحب بس اللى معاهم أكثر من مليون جنيه .

أنا : الحكاية مش حكاية حب ، إنت مش رايح تتجوزه ، إنت بتنتخب الأصلح للبلد .

السائق : عشان أنتخبه لازم أكون بحبه ، ده غير إن أنا عمرى ما

انتخبت ، وماعنديش بطاقة انتخابية وماعرفش كمان حد عنده بطاقة انتخابية ، تصدق إن أنا بعد العمر الطويل ده عمرى ما شفت واحد عنده بطاقة انتخابية ! ! إنت عندك بطاقة انتخابية؟

أنا : لأ .

السائق : دول شوية عمد ورؤساء ومديرين بيلموا الفلاحين أو الموظفين بالغصب عشان ينتخبوا ، وده عشان يكسبوا شوية فلوس أكتر ، الموضوع سبوبة فى الآخر ، وإنما لو عايز الصح ، الكام واحد العُمى اللى بيروحوا ينتخبوا ، مفيش واحد منهم رايح بمزاجه ماعدا شوية المليونيرات الحرامية اللى بيروحوا بزبس .

أنا : باين عليك شايف الدنيا سودة شويتين .

السائق : (فى غضب) وعلىّ الطلاق ما فيه حد من السبعين مليون مصرى بينتخب بمزاجه ، بس زى ما اتفقنا انسى بتوع الملايين .

أنا : يعنى الحكومة مش عاجباك؟

السائق : عاجباك إنت؟

أنا : بصراحة أنا شايف إن الدكتور نظيف راجل نظيف اليد جدا وماجالناش واحد نظيف اليد كده من زمان .

السائق : ده خواجة .

أنا : إزاى يعنى؟

السائق : ده كندى ، وراح حلف اليمين هناك فى كندا .

أنا : ماعرفش الحكاية دى .

السائق : يا عم ما تعرفش إزاى؟ كندى ، بقولك كندى ، حسنى مبارك اختار لنا رئيس حكومة كندى . بعد الانتخابات إن شاء الله اللى ح يكسبها طبعا حسنى مبارك ، يجيب لنا إن شاء الله واحد أمريكانى بدل الكندى وح يكون اسمه جونى ووكر .

* * *

(٥٤)

طلبت من السائق أن يقودنى إلى مبنى التلفزيون فى ماسبيرو ، تهلل وجهه وهو يسألنى ما إن كنت موظفا بالتلفزيون وعندما أجبته بالنفى ، لم ييأس .

السائق : بس إنت أكيد تعرف حد هناك؟

أنا : أعرف .

السائق : أصل أنا عايز ضرورى أشوف الأستاذ مفيد فوزى ، ضرورى جدا .

أنا : واضح إنها حاجة ضرورية جدا؟

السائق : دى حاجة مش علشانى ، دى علشان البلد ، أصل أنا عايز أقول له إن كل يوم الصبح نص اللى بيركبوا معايا بوصَّلهم معهد السرطان ، حاجة غريبة جدا ، أول ما أوصل توصيلة للمعهد وألف لفة ولاَّ لفتين ألاقى زبون تانى رايح المعهد ، واضح إن البلد كلها عندها سرطان .

مش عارف من الهباب اللى بنشمه فى الشارع ، ولاَّ من الأكل

اللى بتتسممه، ولأ أكيد من المبيدات اللى عمالين نرشها، إنما اللى عايز أقوله للأستاذ مفيد إن كل يوم بيجى نص الشعب المصرى بيروح معهد السرطان، وهو بقى أكيد ح يعرف يتصرف، أكيد يعرف الريِّس، وأكيد ح يكلمه فى الموضوع الخطير ده والريِّس بقى أكيد ح يشوف حل للمصيبة دى.

* * *

(٥٥)

أنا بشوف فى كل واحد عنده عربية ملاكى حرامى، لص، والله ما بَبالغ، بأبص فى عينيهم وبَشوف إنهم شوية حرامية.

شايف البنت الغلبانة اللى واقفة هناك، إتفرج على العربية اللى قدامنا ح تعمل إيه؟ شفت، أهى العربية حضنِّت والواد عمال يحاول مع البت، أهو مشى قفاه يقمّر عيش، مَش بقول لك كل واحد عنده عربية فى البلد دى حرامى بيجرى على حاجة مش بتاعته.

شايف العيال دول اللى واقفين، دول خارجين من معهد السكرتارية اللى على اليمين ده، شايف العربية دى، يا دين النبى، دى تساوى لها فوق النص مليون جنيه، واقف أهه زى اللص الوسخ بيبص فى المرايا مستنى حد يقرّب منه.

حاجة بقت حقيرة وتقرّف، طول ما أنا ماشى شايف العربيات ما وراهاش حاجة غير السرقة، ما هو واحد غنى قوى مرة قال لى: «الأغنياء بيحيكوا الفقراء كل لحظة فى حياتهم»، الواحد يروح يشتغل عند واحد غنى يقعّده تلات أسابيع طلوع دين

وبعدين يمشّيه ويقول له مانتاش كويّس، ويجيب واحد تانى يعمل فيه نفس الحكاية، بيحيكوهم.

والمصيبة أنهم بيحاولوا يسرقوا بنات عندها ١٦ ولاّ ١٧ سنة، ولاّ البنات اللى فى المعهد اللى شوفناهم بنات صغيرين يا عينى وغلابة وحلوين وبيحاولوا يتعلموا ويتنفسوا بنضافة، ودول عاملين زى الدّيابة عايزين ينهشوا فى لحمهم، والبنات يا حبّة عينى لسه فى منتهى البراءة مش فاهمين الوساخة بتاعة حرامية العربيات.

شوف العربية دى كمان، آه، دى جمرك السويس، بص حجمها قد إيه دى عاملة قد الأوتوبيس، واقف راخر متلطّع مستنى يرمى قذارته فى الشارع عندنا.

واستمر السائق طوال الطريق يوجه عينى إلى لصوص الطريق - على حد قوله - واستمر فى تحليل سبب وقوف كل سيارة على جانب الطريق بدون ملل أو كلل، الغريب أننى لم أنطق بكلمة طوال الطريق منذ صعودى للتاكسى وحتى نزولى منه، كان مونولوج طويل حول اللصوص الأغنياء وخفت أن أقول له إننى أمتلك سيارة.

* * *

(٥٦)

الصداع يقتلنى، نادرا ما أصاب بصداع، كنت حتى الثلاثين من عمرى أفتخر وأكرر لكل من حولى أنى لم أشعر بصداع أبدا، ولّت هذه الأيام وها أنا أقف فى شارع محمد فريد بوسط البلد يعتصرنى الصداع.

اقترب منى تاكسى وأبطأ دون أن يتوقف فاضطررت أنا للصراخ «عجوزة.. عجوزة»، فتوقف سيادته على بعد ثلاثين مترا منّى، جريت لألحق به قبل أن يغيّر رأيه ويتركنى، وهو أمر كثير الحدوث لأسباب ربّانية غير مفهومة للغلابة من أمثالى، فتعثرت فى بركة من المجارى ممتدة من تحت السيارات التى تركن على جانب الطريق ولم ألاحظها.

المهم أننى ركبت التاكسى فكنتُ كالمستجير من الرّمضاء بالنار، فقد وجدت السائق وهو شاب لم يتعد الخامسة والعشرين من العمر، وقد رفع صوت شريط الكاسيت إلى مستوى يفوق المؤشرات العالمية للصداع الذى يفتك بى.

طلبت منه - بأدب جم - أن يخفض الصوت، وجدته فجأة فى

منطقة عالية من الحوار كان من المفترض أن نصل إليها بعد خمس دقائق على الأقل، يصرخ فىّ: «يعنى ده لو قرآن كنت قدرت تقول لى وطّى الصوت؟».

لم أفهم فى البداية العلاقة بين طلبى وبين ما قاله، ثم تبينت أنه يسمع «وعظة»، ولاحظت حينئذ عددا كبيرا من صور البابا كرلس والبابا شنودة تحيط بى من كل جانب، ليعلن للجميع أنه مسيحى. لا أنكر استغرابى من سلوك السائق، فمسيحيو مصر فى العموم لا يندفعون إلى مواجهات من هذا النوع، بالإضافة إلى أن كل من عرفتهم من أصدقائى المسيحيين لا يتباهون كثيرا بقيامهم بواجباتهم الدينية، فلم أجد أحدا يقول: «أنا رايح الكنيسة النهاردة»، على عكس أصدقائى المسلمين الذين لا يكلّون عن الإعلان عن أدائهم الصلاة أو الصوم: «صليت العصر، أصل أنا ما لحقتش أصلى العصر» أو «والله تعبان أصل أنا صايم النهاردة الاثنين (أو احتمال كان الخميس)».

لم أعرف أبدا السبب وراء ذلك، هل يعود الأمر إلى طبيعة كل ديانة؟ أم يعود الأمر لكون المسيحيين أقلية فى مصر، أو أننى لا أعرف لأن الصداع يمسك برأسى كما يمسك البلطجى بقميص المضروب.

فكرت أن أنسحب من الحوار، ولكنى قررت أن أرد:

أنا: أيوه.. كنت ح أقول له يوطّى الصوت، ولمعلوماتك أنا

كل ما أدخل تاكسى وألاقيه مشغّل قرآن وعمال يدردش معايا، أقوله ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)﴾ (الأعراف: ٢٠٤). وأطلب منه أن يقفل الكاسيت.

هو: (فى عصبية أكبر وكأنه لم يسمع ما قلت) مش ح أوطّى الصوت ولو مش عاجبك انزل.

أنا: (متصنعًا العصبية) إش عرّفك أصلا إن أنا مسلم، مكتوب على جبينى، مش ممكن أكون مسيحى مؤمن ومصدع. والآخلاص لازم أعلق لك صليب على صدرى أو لازم الزبيبة تبقى منورة جبينى عشان سعاتك تقدر تصنف الركاب.

هو: حضرتك ده التاكسى بتاعى.. مش ح أوطّى الصوت.. أنا عايز أسمع.. تنزل حضرتك وألا أوصلك؟

لزمت الصمت، وأكمل هو طريقه. فكّرت أن أتحدث معه فى مبدأ عدم التعسف فى استعمال الحق، وأن حقه يجب أن ينتهى عندما يبدأ حق الآخرين. ولكننى تذكرت أن ما أفكر فيه هو ترهات لا معنى لها فى الشارع المصرى الذى يصرخ بكل أنواع الصراخ، فالميكروفونات تحاصرنا ولا أحد يستطيع فتح فمه.

انتهى وجه شريط الكاسيت وقام السائق بوضع الوجه الثانى بسرعة، خيّم علينا الصمت للحظات ونحن لا نتحرك عند إشارة مرور أمام دار القضاء العالى، ولاحظت أن عضلات وجهه

المتشنجة بدأت فى الارتخاء قليلا ، كنت أجلس فى الخلف وبدأت فى تأمله ، كان أصغر مما توقعت ، ربما فى العشرين من العمر ، يبدو على شعره أنه لم يتعرّف على مشط من أمد بعيد ، ويبدو من أدائه الصوتى أنه لم يتلق قسطا من التعليم ، محتمل أنه توقف بعد الابتدائية .

أخرجت قطعة من الشيكولاتة وقدمتها له على أمل أن تفك قليلا من التوتر ، رفضها فقلت له :

«مش أحسن من السجاير ، عفّر يا عم عفّر» .

أخذها على مضض .

أنا : مالك متعصب كده ليه؟

هو : ح تعصبنى ليه؟

أنا : قول لى بس مالك؟

اقتربنا من مطلع كوبرى ٦أكتوبر ، تدافع العديد من الواقفين قبل المطلع ليصرخوا بوجهاتهم على أمل أن يقف لهم ، أغلق الكاسيت لكى يستمع لنداءاتهم : إمبابة - الوراق - بولاق الدكرور ، لم يقف ، وصعد على الكوبرى ، كان الكوبرى شديد الازدحام ، وبعد فترة طويلة من الصمت ، تنهد قائلا :

هو : لسّه أخويا مكلمنى دلوقتى ، ده الوحيد اللى فلح فى عيلتنا ، أخويا ده عبقرى يا أستاذ ، معيد فى كلية آداب اجتماع . .

أنا : إن شاء الله خير .

هو : النهاردة الدكتور اللى بيشرف على رسالته أجل المناقشة كمان مرة ، بقاله ابن القحبة بيمطوح فيه قول من كام سنة . . بصراحة مضطهده عشان مسيحى ، عاملين فى كلية الآداب ربّطية عشان يقفوا فى وش كل واحد مسيحى .

اعتراضى على كلامه كان سيفجر طاقة غضب هائلة بداخله بالإضافة إلى أن كلامه قد يكون صحيحا ، شاهدت وعرفت بأحداث مثل هذه من قبل ، لم أعرف تماما ماذا يجب أن أقول ، قررت أن أصمت مثلى مثل جميع الصامتين فى المجتمع من حولى .

* * *

(٥٧)

بقالى أربع شهور بأفكر فى اليوم ده، قعدت كل يوم أقول فاضل ٥٠ يوم، فاضل ٤٥ يوم، كابوس أسود وبيلاحقنى، عامل زى عملى الردى ومـاليش أمل فى الهروب منه، أصل تجديد رخصة السواقة بيكون كل ٣ سنين، كل مرة الواحد بيمسح بأستيكة اللى بيحصل له فى الكام يوم دول، وبيعدوا التلات سنين قوام وتلاقى نفسك مش عارف تعمل إيه؟

المهم.. أحكيلك يا سيدى مشوار الضناء ما إحنا عقبال ما نوصل شبرا أكون خلصت لك الحكاية وأهو أدينا بنتسلى.

رحت مرور القاهرة فى مدينة السلام وأنا ساكن فى دار السلام.. اللى اتنين سلام لكن عشان أوصل من بيتى للمرور بأركب تلات مواصلات بتلات حروب يعنى باخدها فى أقله ساعتين.. وصلت المرور وعرفت المطلوب، وهو عبارة عن فيش وتشبيه وتأمينات اجتماعية وشهادة من النقابة.. إيصالات تسديد يعنى.. وكشف صحى..

طبعا عشان أوصل من المرور للتأمينات فرع البساتين، ودى

موجودة فى المعادى محتاج تلات ساعات دى فى أقصى الشمال ودى فى أقصى الجنوب كنت ح أوصل بعد ما يقفلوا.

تانى يوم طلعت على التأمينات، دخلت على الموظف قدّر التأمين وقال لى ادفع وتعالى لى تانى، طلعت على الخزنة ما أقولكش على الطابور، دفعت حوالى ٤٢٤ جنيه على الـ ٣ سنين ورجعت له تانى، عمل لى الإيصال وقال لى اطلع فوق امضى واختم وتعالى لى تانى، طلعت فوق دخلت على الموظفة، من فضلك عاوز أمضى وأختم قالت لى روح عند مدام «فلانة»، مدام فلانة وديتنى عند مدام «علانة» لفيت اللفة التمام، المهم مضيت، وقالت لى ادخل عند الريّسة عشان تختم فى الشقة التانية دخلت عند الريّسة، الريسة فى الحمّام، إن الريسة تظهر وتبان وعليها الأمان، أبدا، قلت تلاقيها بتولد، المهم ييجى بعد ساعة ظهرت الريّسة وختمت وتمام التمام.. نزلت للموظف الأولانى وقعدت مستنى ييجى نصف ساعة، راح باصص على الورقة وقال كده تمام امشى.. طيب ما كان من الأول، أمشى على طول من بره بره.. المهم مشيت..

وطبعا مكانش ينفع فى نفس اليوم أعمل النقابة لأنهم طبعا اتجاهين معاكسين فالنقابة فى عبده باشا فى العباسية وعلشان أطلع من المعادى للعباسية حدوتة.

اليوم اللى بعده رحت رايح النقابة فى عبده باشا، السلام

عليكم وعليكم السلام إديته الكارنيهات القديمة، فطلب ١٠٥ ج قلت له ليه إن شاء الله ١٠٥ جنيه؟ قال لى ما هى زادت، أنت ما عرفتش.. قلت له: لأ والله مفيش حد قال لى أصلهم بيخبوا علىّ الحاجات دى عشان عندى القلب بعيد عنك.. قال لى على العموم هى متعلقة على الحيطة هناك آهه روح شفها؟ قلت له ماشى.. رحت عشان أشوف الورقة اللى على الحيطة وجمعت الفلوس لقيتهم ٨٣ جنيه.. رجعت له تانى قلت له يا عم دول ٨٣ إزاى بتقول لى ١٠٥ جنيه قال لى ماهى تم تطبيقها بأثر رجعى، لازم تدفع الزيادة على ٣ سنين اللى فاتوا.. قلت له التلات سنين اللى أنا دفعتهم من تلات سنين، هز لى راسه.. سألته هو فيه حاجة اسمها أثر رجعى؟ مفروض عملتم قانون يبقى فى وقته.. شوّح بإيده: هو ده النظام.. ح تدفع ولا لأ؟

ما باليد حيلة ح أدفع طبعا.. دفعت بس كنت مزنوق فى سؤال:

- ممكن أسألك سؤال بأمانة كده؟

- اتفضل.

- إحنا مستفيدين إيه بالفلوس اللى بندفعها دى؟

- ولا حاجة..

- تمنتهى البساطة بتقولها فى وشى، بارك الله فيك.

المهم اللى لفت نظرى واحد تانى كان بيدفع النقابة وبيسأل ليه ومش ليه قالوا له صندوق زمالة.. قال لهم أنا عاوز أدفع النقابة بس، أنا مش عاوز حد يمشى فى جنازتى لما أموت، حد شريكى. مش عايز أدفع صندوق الزمالة. المهم مشيت والخناقة والعة وما عرفتش إيه اللى تم مع الراجل.

إوعى تكون نمت منّى.. لا.. شكلك لسه مصحصح، أكمل لك يا سيدى، بعدها بيوم طلعت على الفيش والتشبيه تبع سكنى فى قسم البساتين.. المهم رحت القسم، شحْططة وعذاب.. ليه؟ أحكيلك!

بعد ما وقفت فى طابور طويل قال لى الدفعة هات لى طابع شرطة، دخلت عشان أجيب طابع الشرطة قالوا لى:

- لأ روح قسم المعادى أو الخليفة.

- اشمعنى؟ هناك الطابع شكله أحلى؟

- لأ يا خفيف، هناك فيه طابع شرطة وهنا مفيش.

- يعنى إيه مش هنا قسم برضه إزاى هنا مفيش؟ يعنى عايزنّى أروح لغاية المعادى؟

- من فضلك متعطلناش، وسّع، اللى بعده.

المهم أخدت تاكسى رايح جاى على قسم المعادى ودفعت لى ١٢ جنيه، عشان أجيب طابع شرطة بـ ٣ جنيه، ورجعت تانى

عشان أقف الطابور من أوله . . كان عذاب عن حق . المهم الكلام ده كان يوم الخميس قال لى تعالى يوم السبت استلم ، رحت يوم السبت بدرى عشان أستلم على طول ، طبعا أحلام ، انتظرت بره ، الباشوات بيفطروا فول ، الورق لسه ما جاش ، آخرتها أخدت الفيش وما عرفتش أروح المرور فى نفس اليوم ، خراب بيوت وصاحب التاكسى ح يجيب سواق غيرى .

تانى يوم رحت على المرور من دار السلام لمدينة السلام متسلح بكل المعارك اللى عملتها وأوراقى فى جيبى ، قالوا لى الكومسيون الطبى . . طلعت على الكومسيون الطبى لاقيت ناس واقفة بيبيعوا شهادات طبية «أيوه . . أيوه حد عاوز شهادات ، حد عاوز شهادات» سماسرة يعنى . . المهم أخدت الورقة منه وسألته بكام؟ قال ٢ جنيه . . معدّى بالصدفة واحد فى الشارع ، قال لى يا عم دا فوق بيدوها ببلاش ، السماسرة عملوا تاتش مع الراجل اللى قال لى ، جه الراجل اللى باع لى عشان ما ينحرجش قال لى يا عم لو رِجعت بتاعتى . . هاتها وح أديك حسابها .

طلعت فوق على الشباك طلع الصورة من على الورقة اللى اشتريتها بـ ٢ جنيه ، سألته إنت مش عاوز الورقة دى؟ قال لى لأ ، قلت له طيب هاتها . . أخدتها ونزلت للراجل اللى بيبيع وقلت له : قد القول؟ قال لى عندى وخدت منه الـ ٢ جنيه .

المهم حددنا ميعاد الكومسيون . . كنت أنا عامله يوم السبت قالوا تعالى الثلاثاء ، قلت انتهزها فرصة وبالمرة أعمل شهادة المخالفات عشان ح تطّلب منى ح تطّلب منى ، وبالفعل عملت شهادة المخالفات ولاقيت العالم اللى ملهاش شغلة ولا مشغلة بره .

- أيوه يا بيه نعمل لك شهادة مخالفات؟

- ح تتكلف كام يا جميل؟

- ١٠ جنيه ، ٥ جنيه بياخدها جوه و٥ مرزقة .

- يعنى إيه مرزقة يالا .

- رزق من عند ربنا ، وشقانا وتعبنا

- طيب والنبى لو لاقيت مرزقة جنب منك ابقى انده لى كلنا محتاجين مرزقة .

- ح تقف فى الطابور وتتبهدل ومش حتعرف تخلّص مع الناس اللى جوه .

- أنا ما ورايش حاجة ما هو يوم بايظ بايظ ، أنا مستنى ميعاد الكومسيون .

سيبته ووقفت فى الطابور ، طبعا خلّلنا ، اشتريت الورقة بـ ٥ جنيه وقدمتها للمرور ، وأخدُه منّى ٥ جنيه برضه فردة ، بالرغم إن ما كانش فيه مخالفات ، لكن هما لازم ياخدوا فلوس يسمّوها

معونة شتاء أو معونة صيف أو أى حاجة، وقفت حوالى ساعتين وطبعا مفيش لا مظلة ولا أى حاجة اتلسعنا فى الشمس لغاية ما قلنا يا كفى، وبعدين نادوا علينا فى الميكروفون واستلمتها ورحت ماشى. كان يوم تعب.

يا أستاذ إنت نمت؟ إصحى. كل ده من شوية كلام، أمال لو كنت معايا كان حصلك إيه؟ حاضر ح أكمل ما أنت واضح إنه عجبك النوم على صوتى.

استنيت ليوم الثلاثاء، مش عايز أحكى لك عن الزحمة، طوابير بطول المصارين، وقفت فى طابور زى التعبان والراجل كان واقف عمال يزعّق: «ياللا كل واحد يستعد ويصبّح علينا»، طبعا يصبّح علينا دى، يعنى أى واحد يدفع له اللى فيه القسمة أنا دفعت جنيه.. ودخلت الحمد لله وعملت الفيش ودخلنا عند الدكتورة نكشف أعصاب ونظر.. وحصل موقف بالنسبة للنظارة غريب قوى، السواق اللى قبلى على طول كان بيجدد رخصته، كانت منتهية من ٦ سنين تقريبا.. وعمال يقول لهم أنا عاوز أكشف بالنضارة، الدكتورة ما رضيتش، قالت له لأ شوف المرور ح يقولك إيه الأول، إنت بقالك ٦ سنين ما جددتش وصورتك فى الرخصة من غير نضارة، الراجل قال لهم طيب أصرف منين؟ وأعيش إزاى؟ المهم قالت له اكشف من غير نضارة قال لهم مش ح أشوف حاجة قالت له والله اسأل فى المرور، الراجل خرج بيصرّخ، دخلت أنا بعد منه وبطنى سايبة، ماسك النضارة فى

إيدى، وإيدى بترعش، كنت لسه عاملها من ييجى أسبوع عشان الكشف، قلت لها دلوقتى الصورة من غير نضارة.. قالت لى لأ حضرتك اتفضل إنت البس النضارة عادى.. وراحت قايلة بعلو صوتها: «آهه شفتم بقى إن إحنا مش بنعقدها مع الناس إزاى، آهه راجل قديم ورخصته مانتهتش وبيجدد عادى وح نكتب فى الكشف بالنضارة».

طبعا أنا حالتى زى اللى قبلى بالظبط، بس ما تفهمش، المهم كشفت بالنضارة وتمام التمام، أخدت فى الفيلم ده بتاع تلات ساعات من الزحام المتصل وقالوا لى تعالى المرور بعد يومين.

رحت يوم الخميس، الشمس شدة حيلها، قلت حلو الصلعة حتتشوى، أخذت الطابور من أوله لآخره وبعدين الست قالت لى روح ادفع فى الخزنة رسم تصوير الكمبيوتر.. طلع الكمبيوتر بايظ، لكن دفعنا برضه تصوير الكمبيوتر.. ورجعت عدت للطابور تانى من أوله، ولما وصلت، قالت لى عاوزين دمغات سبت الطابور ورحت أجيب دمغات، ورجعت عدت للطابور تالت من أوله، وكل ده ولا فيه حاجز للشمس ولا أى حاجة وبقيت سعادتك تقدر تقْلى بيض على صلعتى.. المهم قدمت الورق للموظفة بصت عليه وقالت لى خلاص يا أستاذ كده تمام انتظر لغاية ما تسمع اسمك عشان الرخصة، بس الكمبيوتر عطلان، إنتم ح تاخده تصريح بس.. قلت لها يا ستى هاتى أى حاجة إن شا الله تكتبوا الرخصة على ورقة لحمة المهم حاجة تمشى

بيها فى الشارع لو حد عارضنا نطلعها له، أخدت بعضى واستنيت ييجى ساعتين إن حد ينده اسمى ما فيش والساعة قربت على ٢ بعد الضهر والموظفين خلاص ح يمشوا.

كنا اتنين اللى فاضلين ماحدش نده عليهم، كان اسمه نادر، سواق مليان كده وحبوب، رحنا نسأل فى الشباك فوجئنا إن الملف بتاعنا مش لاقيينه. طبَّق نادر إيده باللى فيه النصيب وقال لها حاولى تعملى لنا ملف بديل ولا ملحق، أى حاجة اتصرفى. حطت الفلوس فى الشنطة، وعملت ملفين وقالت ده تصريح لمدة تلاتة شهور، لو ما لقيناش الملف حتضطروا تجيبوا صور من الشهادة بتاع المؤهل والميلاد والكلام ده كله.. مسكت التصريح أبو ٣ شهور وقريت سورة الفيل، ماكنتش مصدق نفسى.

وأنا نايم بأفضل أخرَّف، ح يلاقوا الملف؟ الكمبيوتر ح يتصلح؟ ح آخد الرخصة؟ كابوس ومش عايز يخلص، عندك أى فكرة هما بيعملوا فينا كده ليه؟

* * *

(٥٨)

رمضان.. قبل مدفع الإفطار بقليل.. وأنا أحمل لوحة كبيرة.. وأنتظر أن يظهر لى تاكسى ولو من السماء.. فالمدفع بعد حوالى عشر دقائق.. ومن الصعب إيجاد تاكسى فى ذلك التوقيت، ولكن العناية الإلهية أرسلت لى ملاكا فى ليلة القدر.. كان بالفعل ملاكا أسود بأجنحة سوداء قادما من الجنوب الأسود، من أجمل بقاع مصر، أسوان، كان ذا قلب أسود[1] لون النقاء والأصالة والجمال.

السائق: اللوحة كبيرة قوى.. مش ح تيجى على الكنبة اللى ورا.. تحب نثبتها على الشبكة؟

أنا: مفيش وقت عشان نلحق الفطار.

السائق: مش ح يحصل حاجة لو تأخرنا كام دقيقة.

ونزل الملاك الأسود يثبت اللوحة على سقف السيارة وبعد

(١) أرى أنه من الممكن استخدام صفة الأسود للإشارة إلى النقاء والجمال.

تثبيتها، تحركنا بهدوء ودون تعجل. كان رجلا فى أواخر الخمسينات.. مريح الملامح.. عذب الصوت.

السائق: حضرتك رسام؟

أنا: لا والله بس كنت عند صديقة رسامة.

السائق: رسامة بورتريه ولا لاندسكيب.

أنا: والله ما أنا عارف بالظبط.. ده سؤال متخصص قوى.. إنت رسام ولا إيه؟

السائق: كنت بحب الرسم جدا.. آه كنت بارسم.

أنا: كنت !!.. وليه سبت الرسم ؟

السائق: ياه.. أنا سبت حاجات كتير قوى.. طول ما أنت ماشى بتسيب حاجات وراك وعشان ترجع تانى مستحيل.. العقارب بتتحرك لقدّام بس.

أنا: وسبت الرسم وبعدين؟

السائق: رحلة العمر طويلة وأنت بتجرى فيها.. جريت كتير، سافرت بره وجوه.. رحت أسبانيا وألمانيا وفرنسا.. وقعدت فى فرنسا شوية.. كنت شغال ساعى فى مكتب مصرى.. وهناك يوم الأحد كنت بروح متحف اللوفر.. ماهو الأحد الدخول ببلاش، الثقافة للجميع.. وكنت أقعد طول النهار أتمتع، كنت بحب قوى لوحة لدافيد بتاعة تتويج نابليون..

فيها تفاصيل مش عادية وفيها شغل إضاءة جميل. لوحة حجمها كبير قوى حوالى ١٠ فى ٦ متر رسمها سنة ١٨٠٥، وزى ما إنت شايف كملت جرى وأنا أهو بوصّل حضرتك.

أنا: لو بتحب الرسم للدرجة دى، لازم ترسم.

السائق: أنا بحب حاجات كتير قوى. أنا مضيّع كل فلوسى على هواياتى.. بشتغل على التاكسى كام ساعة وباقعد بقية اليوم فى بيتى ما بتحركش منه.. هو العش اللى أنا طلعت بيه من الدنيا.. بحاول يبقى عش مريح.. أنا ساكن فى دور أرضى فى القطامية عندى جنينة قدّام البيت.. دى الجنينة اللى اعتبرتها بتاعتى، باشتغل فيها كل يوم.. زارع مسك الليل ولبلاب ودفونباخيا وجهنمية.. وزارع كمان هبسكس بزهرة حمراء.. دى بتقفل بالنهار وبتفتح بالليل. وأنا كمان غاوى عصافير، عندى قفص كبير فيه يجى عشرين عصفورة.. لسّه مراتى متخانقة معايا خناقة كبيرة قوى إمبارح عشان اشتريت جوز عصافير بميتين وخمسين جنيه.. دى عصافير جاية من البرازيل. جميلة جدا ورقيقة جدا. بس ما تتكاثرش فى مصر.

إزاى وإزاى أدفع المبلغ ده كله فى جوز عصافير.

وعندى كمان أحواض سمك عندى فانتيل وجوبى.

وعامل قاعدة عربى على الأرض وحواليا حوض السمك والعصافير، وقدامى من الشباك باشوف الجنينة.. بأحس إنى فى

جنة بعيد عن جحيم القاهرة .

أنا : إيه الجمال ده كله!

السائق : الله يكرمك . . تعرف حضرتك وأنا فى بيتى بابقى خارج المكان وخارج الزمان . . عينى على السمك وودنى مع زقزقة العصافير وبشم فى الليل ريحة مسك الليل . . لازم تشرفنى مرة بزيارة .

تحدث معى عن الزرع والفن والسمك والعصافير والجمال فكان موسوعة فى كل موضوع . . من أين أتى بكل هذه المعارف؟ اشتكى لى من ابنه الذى يرغب فى الحصول على كل شىء من دون أن يبذل أى مجهود . . اشتكى لى من جهله وتذكر كيف كان هو وزملاؤه يذهبون كل ليلة لدروس تقوية فى مجال من المجالات . . اشتكى لى من الزمن الذى رسم ابنه على هذه الصورة .

ذلك الملاك الأسود ترك لى فى النهاية طعم السكر فى حلقى، ورائحة مسك الليل فى روحى، وجعلنى لأول مرة منذ زمن أفطر بتمهل ودون استعجال متأملا كل شىء حولى . .

وجعلنى فى النهاية أحاول أن أجعل منزلى عشًا كالذى وصفه .

ولكن من أين لى بأجنحة كأجنحته؟

* * *

قالوا عن الكتاب

هذا الكتاب/ الدراسة/ المونولوج الدرامى يصعب تصنيفه، إذ إنه ينتمى إلى نوع أدبى قديم جديد. فهو يقدم شخصيات إنسانية مركبة، ويكشف كثيراً من أبعادها، شأنه فى هذا شأن أى عمل أدبى عظيم. ولكن المؤلف بدلاً من أن يخبرنا عن هذه الشخصيات بشكل مباشر، يهيىء لها المسرح، ويتركها تتدفق بلغة كثيفة مشحونة بالمعنى والدلالة. والمسرح هنا هو التاكسى، أى مسرح متحرك، منفتح على القاهرة بأسرها، ولكنه فى ذات الوقت حيز خاص يوجد بداخله السائق/ البطل الذى يتحدث عن آلامه وآماله وعن أحلامه وإحباطاته، ويجلس إلى جواره الراكب/ المؤلف الذى يراقب ولكننا لا نسمع صوته إلا لماما.

هذا عمل أقل ما يوصف به أنه عمل إبداعى أصيل، ومتعة فكرية حقيقية.

د. عبد الوهاب المسيرى